نوابغ الفكر العربي

١١



بقلم محمد عبد الغني حسن



دار المعارف بمصر


ابن الرومي

نوابغ الفكر العربي



بقلم محمد عبد الغنى حسن

« . . . وكان ابن الرومى ضنيناً بالمعانى حريصاً عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يزال يقلبه ظهراً لبطن ويصرفه فى كل وجه وإلى كل ناحية ، حتى يميته ، ويعلم أنه لامطمع فيه لأحد . »

ابن رشيق القيروانى



دار المعارف بمصر

المضايقة أن الصدام كان يعنفُ قليلا أو كثيراً بين جنود الترك وأهل بغداد .
وفى غمار هذه المصادمات ولد ابن الرومى ، ولعله قد أصيب فى طفولته بعض الأذى من جنود الترك وهم يعيثون فساداً فى مسارب بغداد . . .

ولو أن شاعرنا ابن الرومى أدرك الترك فى بغداد وهو شاعر مدرك لما سلموا من هجائه كما لم يسلموا من لسان « دعبل » الشاعر الذى كان أسن من ابن الرومى فى ذلك الحين ، والذى قال فيهم :

لقد ضاع أمرُ الناس حيث يسوسُهمْ «وصيف» و«أشناس» وقد عظم الخطب

ولكن ابن الرومى كان فى المهد صبياً حين زحم الجنود التركُ طرقات بغداد ، ن غلاماً حين نقلهم الخليفة المعتصم إلى مدينة « سامرّا » التى بناها لهم ، يضر لها الفعلة والصناع وأهل المهن من سائر الأمصار .

بعد أحس المعتصم أنه جلب على نفسه وعلى الخلافة العباسية شراً كبيراً حين جلب إليه جنود الترك واصطنعهم . . . ووازن بين خدمة الفرس لمن قبله من الخلفاء ، وخدمة الترك له فوجد البون شاسعاً ، واعترف أنه اصطنع أربعة من كبار قواد الترك فلم يفلح واحد منهم . ومن عجب أن بقاءهم فى بغداد كان شراً عليها ، وأن خروجهم منها إلى « سُرّ من رأى » كان شرًّا عليها نماً . . . فقد بارت تجارتها وتأثرت حضارتها بعض التأثر .

ومهما قيل من قيام الدولة العباسية على أكتاف الفرس ومؤازرتهم ، فإن العنصر التركى الجديد دخل فى ميدان المنافسة مع الفرس ، وأخذ النفوذ التركى يقوى شيئاً فشيئاً ، حتى إن الواثق بن المعتصم استخلف على السلطنة ق (٤) كياً وألبسه وشاحين مجوهرين وتاجاً مجوهراً . . .

وشبّ ابن الرومى فشبّ معه نفوذ الأتراك ، فقد كان إيتاخ التركى يقتل ن يريد الخليفة قتله أو يحبس من يريد حبسه ، بل لقد همّ بقتل الخليفة توكل وهو يعربد مرة فى متنزه بناحية القاطول [1] .

ولم تنقطع الدسائس بين الفرس والترك من ناحية ولا بين الترك بعضهم ببعض من ناحية أخرى ، حتى لقد ضاقت دار الخلافة بمؤامراتهم ، وضاق

الخليفة
كان أخوه

---

(٣) الطبرى » .
(٤) « الـ ...

الفصل الأول

عصر ابن الرومي

١ – الحياة السياسية

لعل شاعراً لم يعاصر بضعة من الخلفاء كما عاصر ابن الرومي ، فإ
صحت رواية ابن خلكان من أنه ولد سنة ٢٢١ هـ ، وأنه مات سنة ٢٨٣
فإنه يكون منذ مولده إلى أن حان حينه قد عاصر المعتصم والواثق والمتو
والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد الذي توفى بعد شا
بست سنوات [١] .

على أن هذه الحقبة من الزمان لم تستغرق غير اثنين وستين عاماً
وما ظنك ببضعة عقود من السنين يتعاقب فيها الحكم على الخلافة العباس
تسعة من الخلفاء ؟ أنجد فى ذلك من عوامل الاستقرار ما يجيز لنا أن نطب
تلك الحقبة بطابع الهدوء السياسي ؟ وكيف نصف ذلك العهد بالهدوء و
كانت خلافة المعتصم نفسها نذيراً بالخلاف بين الخليفة وابن أخيه العباس
د شغب الجند على المعتصم حين بويع ، ونادوا بالعباس خليفة ، فأرس
صم إلى العباس فأحضره ، فبايع عمه ، وخرج إلى الجند المشاغبي
قائلا : ما هذا الحب البارد ؟ قد بايعت عمى وسلمت الخلافة إليه . فسك
الجند[٢] .

وليست هذه الحادثة هي بداية الشغب فى استهلال الشاعر ابن الر
إلى الدنيا ، فقد اقترن مولده أيضاً بحادث آخر ، وهو استكثار ا
المعتصم من جنود الأتراك ، حتى آذوا أهل بغداد وضايقوهم[٣] ، و

(١) « الفخرى فى الآداب السلطانية » .

(٢) « تاريخ الطبرى » ج ١٠ ص ٣٠٤

(٣) « مروج الذهب » للمسعودى .

المتوكل بدسائسهم ، ففكر فى أن ينقل الخلافة من بغداد إلى دمشق [١] ، فراراً من العنصر التركى المشاغب إلى العنصر العربى الذى كان قد تخلى عن المعركة من زمن غير بعيد . . .

وبلغ من دسائس ذلك العصر أن الخلاف كان يشتدّ بين الابن وأبيه، وقد قامت مباينة بالفعل بين المتوكل وابنه المنتصر ، وكان كل منهما يكره الآخر ويؤذيه . . . فاتفق الابن مع جماعة من الأتراك على الفتك بأبيه الخليفة ، فقتلوه وهو يشرب مع وزيره الفتح بن خاقان ، وتهنأ الابن بالجلوس على سرير الخلافة بعد أبيه [٢] .

وبلغ من هوان الخلفاء فى ذلك العصر أن هان الأمراء والوزراء معهم ، فكانت الوزارة لا تنال بعلم ، ولا تدرك بفضل ، ولا يحظى بها مستحق ، وإنما ينالها من يدفع لها الثمن ، فكان ابن عمار وزير المعتصم طحاناً أثرى وكثر ماله ، واتسع ببغداد حاله فاستوزره الخليفة . . . وكذلك كان جعفر الإسكافى وزير المعتز ، فالتاريخ يشهد أنه لم يكن له علم ولا أدب ، ولكنه كان يستميل القلوب بالمواهب والعطايا [٣] .

وإن عصراً يبلغ من سوء الظن فيه أن لا يثق خليفة بابنه ، ولا نظير بنظيره ، ولا أخ بأخيه لهو عصر يدلنا على مبلغ ما وصل إليه اعتقاد الناس فى قيم الحياة ، وعلى حرصهم على انتهاز الفرصة المواتية . فقد كان الخليفة المعتمد قائماً وشاعرنا فى سن الكهولة ، وكان الخليفة مستضعفاً ، وكان أخوه الموفق هو الغالب عليه فى أمور الخلافة ، وصاحبنا مشغول عنها بلذاته [٤] . وماذا يعنى الرجل من الخلافة ما دام له اسمها ورسمها ومحافلها ومظاهرها ، وإن كان لأخيه الأمر والنهى وقيادة العساكر ومحاربة الأعداء والمرابطة بالثغور ؟

على أن هوان الوزراء لم يمنع أن يظهر فى حياة ابن الرومى وزير جليل مثل أبى الصقر إسماعيل بن بلبل ، ويشهد له ابن طباطبا المؤرخ بأنه كان

---

(١) « ظهر الإسلام » لأحمد أمين ج ١

(٢) « الفخرى فى الآداب السلطانية » ص ٢١٦

(٣) المصدر السابق ص ٢٢١

(٤) « الفخرى فى الآداب السلطانية » ص ٢٢٦

كريما مطعاماً متجملا . . . إلا أنه رزئ بابن الرومى ، أو رزئ ابن الرومى به ، فمدحه الشاعر بقصيدة ظن الممدوح أنه يعرّض فيها بنسبه إلى قبيلة شيبان العظيمة ، وجزم بأن ابن الرمى هجاه ولم يمدحه ، فأغرى ذلك الموقف شاعرنا بهجائه هجاء مفحشاً بعد ذلك ، حتى زعم أن ما أصابه من الجاه والسلطان لم يكن إلا لسبب الحظ الذي يحيل الخسيس إلى كريم :

إن للحظ كيمياء إذا ما   مسّ كلباً أصاره إنسانا

ولم يسلم الشعب فى غمار هذه المنافسات بين الخلفاء والأمراء والوزراء والقواد من لواعج الفتن ، وشدائد العذاب . فإن الخليفة المستعين — وهو الذى جاء بعد المنتصر — قد ضايق الأتراك وضايقوه ، فترك لهم سامرًّا ولجأ إلى بغداد يلتمس فيها ظلال الأمن والعافية ، فسلطوا عليه المعتز وبايعوه ليحاربوه به ، ولقيت بغداد وسامرّا من ذلك عنتاً وأهوالا ، وانتهت الفتن بمقتل المستعين ، ولكن المعتز لم يهنأ بعده فى الخلافة بنوم ولا قرار . . . وكان لا يخلع سلاحه فى ليل ولا نهار ، خوفاً من انتقاض الترك عليه ، وانتهى الأمر بأنهم خلعوه وقتلوه .

ولا نستطيع أن نصور الحالة السياسية فى عصر ابن الرومى خيراً مما صوّرها به أحد ظرفاء ذلك العصر نفسه . . . فإن المعتز لما جلس على سرير الخلافة سنة ٢٥٢ أحضر له خواصه المنجمين ليسألهم كم يعيش الخليفة وكم يبقى فى الخلافة ؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال : أنا أعرف من هؤلاء المنجمين بمقدار عمره وخلافته ، فقالوا له : فكم تقول إنه يعيش وكم سنة يملك ؟ فقال : يعيش ويحكم كما أراد الأتراك ! فلم يبق فى المجلس إلا من ضحك.[١]

فى هذا العصر المضطرب المزعزع المشحون بالتيارات السياسية الطارئة على الدولة العباسية عاش ابن الرومى ، وفى موجة الصراع بين العرب والفرس والترك ، وموجة الصراع فى المذاهب والملل والنحل ، وفى بلبلة من القرار السياسى الذى لم تتمتع به الدولة العباسية إلا قليلا ، ظهر شاعر مرهف الحسّ

(١) « الفخرى فى الآداب السلطانية » ص ٢٢١

فبعد عن حياة القصور فى بغداد وما فيها من مؤامرات ، ولعله كان يلتمس النجاة ويؤثر العافية ، وهو يرى الخلفاء يُقتلون ، والوزراء يُعذّبون فى التنّور وفى غير التنّور ، مما ابتدعه القساة للتعذيب والتنكيل ، ولكنه — فى نهاية المطاف — لم يسلم من غيلة القتل مسموماً — كما تذكر بعض الروايات — مما سنعرض له فى فصل تال .

ومات ابن الرومى سنة ٢٨٣ أى بعد أربع سنوات من خلافة المعتضد سنة ٢٧٩ هـ ، فشهد بعض الصلاح فى دولة العباسيين ، وشهد من محمود سيرة الخليفة ما عمرت به مملكته ، وكثرت الأموال وضبطت الثغور . إلا أن الفتوق بدأت تدخل رقعة المملكة الإسلامية ، فقام عمرو بن الليث الصفار ليقتطع جزءاً من بلاد العجم يكوّن به دويلة مستقلة ، ومن ذلك الحين بدأت الدولة العباسية تدخل فى طريق تقسيمها إلى دويلات ، بعد أن كانت كياناً واحداً، ودولة موحدة (١) .

٢ ـ الحالة الاجتماعية

لا نخال تصويرنا للحياة الاجتماعية فى عصر ابن الرومى يبلغ من الدقة مبلغ الصورة التى وصف بها الشاعر نفسه ألواناً من الناس ، وضروباً من العيش ، وفنوناً من اللذات فى قصيدته البائية التى عاتب بها أبا سهل ابن نوبخت ، وشكا إليه بعض الناس ! ولعل المعاتَب هو واحد منهم . . . فى هذه القصيدة التى سنذكر طرفاً منها فى الفصل الرابع يصف ابن الرومى حياة السهر والليل فى بيوت الطبقة العالية ، ويصف الجوارى الكواعب وهن لابسات شفوفاً كالهواء الرقيق أو كالسراب . . . ويصف طبقات من رجال الدولة وجباة الأموال وعمال الشرطة وقد أصبحوا ذاهلين عن أشجان الناس بما هم فيه من أمور وخمور وفراء من السمّور(٢) . . . ويصف لنا سمّار الليالى

---

(١) « الفخرى فى الآداب السلطانية » ص ٢٣١ ، و « الطبرى » جـ ١١ ص ٣٥٢ وما بعدها

(٢) فرو ثمين يعدل أفخر الفراء فى عصرنا هذا .

بما عندهم من كل ما اشتهوه من الآلات والأشربة وأطيب الغوالى ، والند[1] فى المجامر وقد انتشر بخوره كالضباب . وهذا الترف الناعم فى حياة الرجال لم يجمعه علم ولا أدب ولا فضيلة ولا جهاد شريف فى سبيل الكسب ، ولكن جمعته الشرطة بعسفها ، والكتّاب بمظالمهم ، والتجار الذين يشبهون البهائم فى نظر الشاعر . . . وكلهم قد حرموا شجاعة النفس ومزية الحمية ، حتى لم يعد فيهم مدافع عن حريم ، ولا ثائر لعرض . . . وقد اتسموا بالأمانة زوراً، وهم أكثر الناس خراباً فى الذمم ، وفساداً فى الضمائر . وقد بلغ من تهالكهم على الشهوات أنهم لا يفرقون بين الفتاة الناعمة والعجوز المتصابية :

كم لديهم للهوهم من كعاب[2] وعجوز شبيهة بالكعاب

ويسخر الشاعر من هؤلاء القوم المعربدين الذين لا يُرتضون أن يكونوا عبيداً وهم فى مراتب السادة الأرباب ، ويثور ابن الرومى ثورةً مرّة على الزمان المحابى الذى لو أنصف فى القسمة لم يكن الشاعر دون هؤلاء المالكين...

ولعل ثورة ابن الرومى ونقمته على هذه الأوضاع لم تكن إلا تعبيراً عن ثورة كثيرين من المحدودين المحرومين من أهل زمانه ، وهم يرون أغرب المفارقات فى عصر يرتفع باللئيم الخسيس إلى مراتب الحُكم والغنى والأمر والنهى . . .

وعلى الرغم من جدة[3] الواجدين فى عصر ابن الرومى فقد كان الحرمان نصيب الكثرة الكاثرة ، وكان الغلاء بشبحه الرعيب يهدّد البلاد من حين إلى حين . . . ونقرأ فى « الطبرى » فى حوادث سنة ٢٧٢ هـ أن السعر غلا ببغداد لأن التجار من أهل سامرّا منعوا سفن الدقيق من الانحدار إليها متربصين بذلك غلاء الأسعار[4] . ونقرأ بعد ذلك أن العامة ضجوا من الغلاء واجتمعوا للوثوب على « الطائى » الذى كان يحتكر السلع ويتحكم فى الأسعار[5] .

---

(١) الند : نوع من عود البخور

(٢) الكعاب : الفتاة التى نهد ثديها

(٣) الجدة : الغنى

(٤) « تاريخ الطبرى » جـ ١١ ص ٣٣١

(٥) المصدر نفسه

رأيه ومن هنا جمع أمثال هذا المحتكر ثروات طائلة لا يدركها حصر ، فلا نعجب إذا كان الكبس والمصادرة نصيب هذه الثروات من وقت لآخر ، حتى صار ذلك عادة متبعة(١) . فقد صادر المتوكل محمد بن عبد الملك الزيات وأخذ ما فى داره من متاع ومال ودواب وغلمان ، واستصفى أموال أحمد بن أبى دؤاد وأموال أبنائه وجواهرهم جميعاً حتى اجتمع له من ذلك آلاف الآلاف ، وعذّب إبراهيم بن الجنيد النصرانى حتى أقرّ له بسبعين ألف دينار استخرجها من منزله(٢) .

ولقد جمع ذلك العصر من غرائب المناقضات مالا نستغرب معه تناقض ابن الرومى واضطرابه فى كثير من فنون شعره، بين مدح وذم لشخص واحد ، أو لشىء واحد، فبينا نرى خليفة كالمعتمد ينشغل عن الخلافة بلذاته ، إذا بنا نرى الخليفة المهتدى يتشبه بعمر بن عبد العزيز فى سَمْته وصفته وعدله ، ويقول : إنى أستحيي أن يكون فى بنى أمية مثله ولا يكون مثله فى بنى العباس(٣) . وبينما نرى مائدة المعتز مثلاً وقد ملئت بصحاف الذهب ، وأخصبت بألوان من أشهى الأطعمة وآنق المآكل إذا بنا نرى الخليفة المهتدى وعنده نفر من بنى هاشم فى بعض ليالى رمضان ، وقد حل موعد الإفطار ، لا تحفل مائدته إلا بطبق مصنوع من مجدول شجر الخلاف(٤) وعليه أرغفة ، وفى إناء ملح ، وفى آخر خل . . . وذلك كله هو طعام الخليفة وضيفه فى شهر الصيام(٥) . . .

وبينا نرى بعض الخلفاء يمتنعون عن الشراب، إذا بنا نرى الخليفة المعتمد شغوفاً بالطرب، تغلب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهى(٦) .

وبينا نرى بعض النساك الزاهدين الهائمين بحب الذات الإلهية ، القائمين الليل

---

(١) « ظهر الإسلام » ج ١ ص ٣٤

(٢) « الطبرى » ج ١١ ص ٣١

(٣) « الفخرى فى الآداب السلطانية » صفحة ٢٢٣

(٤) الخلاف : صنف من الصفصاف

(٥) « الفخرى فى الآداب السلطانية »

(٦) « مروج الذهب » للمسعودى ج ٤ ص ١٥٧

فى الصلوات والتعبد ، نرى خليفة كالمنتصر يشجع الأحاديث عن العشق فى مجالسه ، بل نراه يحتال فيبتاع جارية من مصر قد أولع بها أحد رجاله أبو عثمان سعيد، حينما وجهه إلى مصر فى بعض أمور السلطان [١] .

ولم لا يفتن خليفة كالمنتصر أو المعتمد أو المعتز بالطرب وحديث العشق وكلُّ ما فى بغداد كان يدعو إلى ذلك ويحثّ عليه ؟ ألم تكن الجوارى يعرضن فى أسواق الرقيق فيبعن فيها بأغلى الأثمان ؟ ألم يكن فى القيان من تصلح للغناء ، ومن تصلح للرقص ، ومن تصلح للمنادمة على الشراب ، وأخيراً من تصلح لإنجاب الأولاد ؟ بل كان بعض الجوارى لتلاوة القرآن ، كجوارى أم جعفر ، اللائى كان يسمع صوتهن كدوىّ النحل [٢] .

دخل عنصر الروم فى نطاق الرقيق منذ اشتبك المسلمون مع البيزنطيين فى الحروب . ففى وقعة عمورية بالذات فى عهد المعتصم أسر عديد من الروم فكان ينادى على الرقيق للبيع عشرة عشرة طلباً للسرعة [٣] . وانتشر الموالى من الروم فى نواحى العراق ، وأنجبت الروميات للعرب خير الأبناء ، أو شر الأبناء على السواء . . . فالخلفاء المنتصر والمعتز والمعتمد — وهم ممن عاصرهم شاعرنا — أمهاتهم روميات [٤] . بل مالنا نذهب بعيداً فى ضرب الأمثال ؟ فابن الرومى نفسه كان مولى من موالى الروم لعبيد الله بن عيسى ابن جعفر بن المنصور العباسى [٥] . وأم شاعرنا كانت فارسية كما سيجىء بعد . ومن حسن الحظ أنها لم تكن قينة ولا مغنية من أولئك اللائى وصفهن الشاعر أو هجاهن بأفحش الهجاء . . . لهذا لا نعجب إذا وجدنا فى ديوان ابن الرومى شعراً كثيراً فى وصف القيان والمغنيات والجوارى ، فقد غلبن على الحياة فى عصره ، حتى لم يعد بدعاً أن يسمى عصر القيان . . .

ولقد اجتمع بجوار هؤلاء الموالى والرقيق الأبيض طائفة من سود الخدم ،

---

(١) « مروج الذهب » جـ ٤ ص ٨٧

(٢) « تاريخ التمدن الإسلامى » لزيدان جـ ٥ ص ٣٠

(٣) « الكامل » لابن الأثير جـ ٦

(٤) « ظهر الإسلام » جـ ١ ص ٦٦

(٥) « وفيات الأعيان » ص ٤٤٢

رأيناهم يثورون ثورة الزنج فى عهد المعتمد، إلى أن غلبهم الجيش العباسى فأبادهم قتلا وأسراً . ورأيناهم فى سنة ٢٨٤ يحدثون ثورة فى بغداد ، لأن العامة إذا رأوا واحداً منهم قالوا له : يا عقيق ! صب ماء واطرح دقيق ! وكان يلحقهم الأذى من الصغير والكبير فى الأزقة والشوارع والدروب وسائر الطرق[١] . وتأثر ابن الرومى بثورة الزنج فوصف ما حلّ بضحاياها المساكين على أيدى الثائرين .

وفى هذا المجتمع الهائج القلق لم يكن بعيداً أن يتخلص المرء من خصمه أو عدوه بأيسر الطرق مئونة وأبشعها عاقبة . فكان السمّ دائماً أغلب الطرق للخلاص من الأعداء . ألم يمت الخليفة المعتضد مسموماً بما دسه له إسماعيل ابن بلبل قبل قتل الخليفة إياه ؟[٢] لقد كان ابن الرومى نفسه ضحية هذه العادة الفاشية للتخلص من الأعداء، فقتل مسموماً كما سيجىء فى فصل تال .

كان عصر ابن الرومى مزيجاً من الترف والبؤس ، والسعة والضيق ، والتدين والتحلل ، والمروءات والخساسات ، بل كان عصر تقلب وقسوة وجبن وقلة وفاء ، وفتن ودسائس . بل كانت أحط الشهوات بين الشعب والموالى مطلقة العنان من كل جانب[٣] . فليس عجيباً أن يكون ابن الرومى وشعره مرآة صادقة لذلك العصر .

٣ ـ الحياة العقلية

عاش ابن الرومى فى القرن الثالث الهجرى ، وإن كان فاته منه عقدان فى بدايته ، وقرابة عقدين فى نهايته . فهو ثمرة ذلك القرن بالذات ، وثمرة ما سبق ذلك القرن من تمهيد لحركة النقل والترجمة فى عصر المنصور والرشيد والمأمون . وكما كان ذلك القرن مائجاً فى سياسته وأحواله الاجتماعية ، فقد كان مائجاً بحركات عقلية مختلفة . فيخطىء من يظن أنه كان عصراً جديداً على

(١) « مروج الذهب » ج ٤ ص ١٩٣

(٢) « مروج الذهب » للمسعودى ج ٤ ص ٢٠٥

(٣) « الشوامخ » ج ٤ لمحمد صبرى

الإطلاق ، ويخطىء من يقول إنه كان عصراً متشبثاً بالقديم . فقد التقى فيه العلم بالفلسفة . والتقى التحلل الخلقى بالتصوف ، والتقى الأدب واللغة والفقه بمفهوماتها القديمة مع الهندسة والتنجيم والكيمياء والرياضة والمنطق بمفهوماتها الحديثة من ثمرات النقل والترجمة . والتقت المذاهب الكلامية لقاء عنيفاً ، حتى لقد رأينا الإمام الأشعرى معتزلياً أول الأمر ، ثم رأيناه بعد ذلك يحارب الاعتزال ويؤلف له مذهباً جديداً يدعو إليه ، ويرقى كرسياً فى مسجد البصرة فينادى بأعلى صوته : من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فإنى أعرفه بنفسى[١] . . . ولقد ابتلى المعتزلة وعلى رأسهم أبو الهذيل العلاف والجبائى بأبى الحسن الأشعرى ، وكان المعتزلة قد رفعوا رءوسهم ، فحجزهم الأشعرى فى أقماع السماسم[٢] .

وفى هذا العصر نجد الحديث النبوى يجمع جمعاً وثيقاً على يد البخارى المتوفى سنة ٢٦٥ ھ ، ومسلم ، وابن ماجه ، وأبى داود ، والترمذى ، والنسائى الذى توفى بعد ابن الرومى بعشرين عاماً . ونرى الإمام الطبرى يجمع بين التفسير والحديث والتاريخ فى ثقافة رجل واحد .

وبجانب هذا العدد من علماء الدين نرى الكندى الفيلسوف وقد عاش إلى عصر المتوكل ، ونرى الفارابى صاحب « إحصاء العلوم » والذى استحق لقب المعلم الثانى[٣] . ولم يعش فيه ابن سينا كما ذكر العقاد فى كتابه عن ابن الرومى[٤] . ونرى فيه من الأطباء يوحنا ابن ماسويه ، وابن سهل ، والرازى . ونرى من أدبائه الجاحظ ، والسكرى الراوية الكبير ، وابن قتيبة صاحب عيون الأخبار ، وقدامة بن جعفر الناقد فى كتابيه نقد النثر ونقد الشعر ، والوشّاء صاحب كتاب الموشى ، وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، وأبا بكر الصولى الشطرنجى الذى نادم الخلفاء وجمع لنا كثيراً من دواوين الشعراء .

---

(١) « وفيات الأعيان » جـ ١ ص ٤٦٤ و « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان جـ ٢ ص ٢٠٨

(٢) « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان جـ ٢ ص ٢٠٩

(٣) « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان جـ ٢ ص ٢١٣

(٤) « ابن الرومى » لعباس محمود العقاد ص ٣٨

ونرى من النحويين فى ذلك العصر أبا عثمان المازنى ، وأبا العباس ثعلباً ، والزجّاج ، وابن الأنبارى ، وأبا جعفر النحاس ، والمنذرى ، ونفطويه ، وابن المرزبان ، والأخفش الأصغر الذى سنرى له مع ابن الرومى شأناً فى الهجاء . . . ونرى من اللغويين الهروى ، والسجستانى ، وأبا العباس المبرد صاحب كتاب الكامل ، والمفضل — وهو غير المفضل الضبى الأديب الراوية — وابن دريد صاحب المقصورة المشهورة ، وعبد الرحمن الهمذانى صاحب كتاب الألفاظ الكتابية .

ونرى من مؤرخى ذلك العصر : البلاذرى صاحب كتاب فتوح البلدان ، ومحمد بن حبيب الأخبارى ، وعمر بن شبة ، وابن طيفور صاحب تاريخ بغداد ، واليعقوبى ، وأبا حنيفة الدينورى صاحب كتاب الأخبار الطوال ، والطبرى . ونرى من الجغرافيين ابن خرداذبة ، وابن الفقيه ، وابن الحائك .

وقد اجتمع فى ذلك العصر طائفة من الشعراء منهم على بن الجهم ، والحسين بن الضحاك ، ودعبل ، والبحترى ، وابن المعتز ، والبسامى البغدادى ، والخبز أرزى ، وابن العلاف . ولا ننسى أبا تمام الذى توفى حين كان ابن الرومى فى سن العاشرة . . .

هؤلاء هم بعض الرجال المثقفين الذين عاصرهم شاعرنا ، وقد يكون لقى بعضهم ، وقد يكون سمع عن بعضهم ، ولكن الذى لاشك فيه أنه انصهر فى بوتقة ذلك العصر ، وأنه صُنع فى معمله العجيب ، الخليط من قديم وحديث ، ومن دين وفلسفة . فأخذ من هذا وذاك ، وشارك فى هذه وتلك من ألوان الثقافة فى عصره . ولا نجد هنا أصدق من أن نأخذه بقوله هو عن نفسه :

إن أكن غيرَ مُحسن كلّ ما تط ... لب إنى لمحسنٌ أجزاءَ
فمتى ما أردتَ طالب فحص ... كنتُ ممن يشاركُ الحكماءَ
ومتى ما أردتَ قارضَ شعر ... كنتُ ممن يساجل الشعراءَ
ومتى ما خطبتَ منى خطيباً ... جلّ خطبى ففاق بى الخطباءَ
ومتى حاولَ الرسائل رسلى ... بلّغتنى بلاغتى البلغاءَ

وقد يقال إن ابن الرومى هنا فى هذه الأبيات قوّال ، أمّا هنا

مثال لتأثره بثقافة عصره ؟ والجواب حاضر ! فإن مثلا واحداً يحضرنا من أمثلة كثيرة ، وهو أبياته فى تعليل بكاء الطفل ساعة يولد . ففيها فكر وفلسفة ومنطق ، وفيها صفات العقلية الجديدة التى تميز شعراء عصره من سابقيهم[١] .

ولا ندرى على سبيل اليقين على أى نحو استقى ابن الرومى معارفه وثقافة عصره ؟ ولكن فى أخباره أنه كان يختلف إلى الأخبارى المؤرخ محمد بن حبيب ، وهو نسابة راوية على الطراز القديم . أما الثقافات الحديثة فمن المحتمل أنه أخذها من الكتب ، وقد كان له بها ولوع وغرام ، وكان يرى فيها المصباح الذى يضىء ظلام العقول . فقد استعار منه ابن المعلى كتاباً وأضاعه ، فعاتبه الشاعر بقوله :

منحتك مصباحاً فأعشاكَ ضوؤه ... وقد كان ظنى أنه سيريكا[٢]

وذكر عنه فيلسوف المعرة أبو العلاء فى رسالة الغفران أنه «كان يتعاطى علم الفلسفة . واستعار من أبى بكر السراج كتاباً»[٣] . فهو صاحب مكتبة يعير الكتب ويستعيرها ، وهو يتعاطى الفلسفة كما يروى الشاعر الفيلسوف .

على أن اشتغاله بتعاطى الفلسفة لم يُذهبه مذهب الفلاسفة ، ولم يبعد به عن طريق الموحدين الناجين من وساوس الشك وزعازع الريب . وقد عبر هو عن هذا فى أبياته التى يمدح بها أبا سهل بن نوبخت بقوله :

وُيدمج أسبابَ المودة بيننا ... مودتنا الأبرار من آل هاشمِ

وإخلاصُنا التوحيد لله وحدَهُ ... وتذبيبنا عن دينه فى المقاومِ

بمعرفة لا يقرعُ الشكّ بابها ... ولا طعن ذى طعن عليها بهاجم

وإعمالُنا التفكير فى كل شبهةٍ ... بها حجة تعيي دُهاةَ التراجم[٤]

(١) « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » لشوقى ضيف ص ٩٥

(٢) « ابن الرومى » لعباس محمود العقاد ص ١٠٠

(٣) « رسالة الغفران » للمعرى تحقيق بنت الشاطىء ص ٤١٩ . وانظر الرسالة بشرح كامل (...) ص ٢٦٦

(٤) « ابن الرومى » للعقاد ص ١٠١

الفصل الثانى

ابن الرومى فى عصره

٢٢١ – ٢٨٣ هـ ، ٨٣٦ – ٨٩٦ م

١ – أخباره فى كتب التراجم والأدب

لم يصادف شاعر من شعراء العربية ما صادفه ابن الرومى من إغفال كثير فى كتب الأدب والتراجم والتاريخ والطبقات . وهو إغفال قد يكون مقصوداً كما يبدو مما فعله معه أبو الفرج الأصبهانى صاحب كتاب الأغانى . وقد يكون غير مقصود كما يبدو فى كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه الأندلسى ، وقد كان معاصراً لابن الرومى وعنى فى كتابه بأدب المشارقة أكثر مما عنى بأدب المغاربة[١] . ويذكر كامل كيلانى أسباباً وجيهة فى إغفال صاحب الأغانى لابن الرومى[٢] ، منها هجاؤه وإقذاعه لأناس نزلوا منزلة الحب والأستاذية لأبى الفرج الأصبهانى كالبحترى والأخفش الذى تتلمذ عليه مؤلف كتاب الأغانى . ولكننا لا ندرى لماذا لم يترجم له ياقوت الحموى فى كتابه الكبير « معجم الأدباء » ، ولا أبو البركات الأنبارى فى كتابه « نزهة الألباء فى طبقات الأدباء » مع أنه ترجم لكثير ممن هم دون ابن الرومى مكانةً وجدارة . لعل سوء حظ ابن الرومى قد لحقه حتى فى ترجمة حياته ، فإن صاحب « معجم الأدباء » لم يذكره إلا عرضاً فى خلال ترجمته لأحمد ابن عبيد الله بن عمار[٣] . أما ابن قتيبة – وكان معاصراً لشاعرنا – فلم

(١) مقدمة « العقد الفريد »
(٢) « صور جديدة من الأدب العربى » لكامل كيلانى ص ٢٠٨
(٣) « معجم الأدباء » ج ٣ ص ٢٣٤

يذكره فى واحد من كتابيه : « الشعر والشعراء » ، و« عيون الأخبار » .

ولعل أطول ترجمة لابن الرومى هى ما جاءت فى كتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان ، فقد بلغت قرابة صفحتين من قطع هذا الكتاب الكبير ، أما بقية أخباره فنجدها مبعثرة ، نتفة هنا ونتفة هناك . والطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ لم يذكر شيئاً من أخبار شاعرنا فى « تاريخه الكبير » ، على حين أن المسعودى صاحب « مروج الذهب » المتوفى سنه ٣٤٦ يذكر مصرعه على يد القاسم ابن عبيد الله ويشهد له بالتجويد وخلق المعانى . ثم يأتى بعد ذلك المرزبانى المتوفى سنة ٣٨٤ فى كتابه « الموشح » فيترجم له فى سطور ، ثم يترجم له ترجمة أطول فى كتابه « معجم الشعراء » فيصور لنا افتنانه فى أجناس الشعر ، ويجعله فى الهجاء مقدماً لا يلحقه فيه أحد من أهل عصره ، ويذكر لنا علته السوداوية التى كانت تتحرك عليه فتغير منه . . . ، ثم نراه بعد ذلك فى « الفهرست » لابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ حيث يذكر ديوانه الذى رواه عنه المسيبى ورتبه الصولى على الحروف .

فإذا انتقلنا إلى القرن الخامس وجدنا طرفاً من أخباره فى كتاب « زهر الآداب » للحصرى القيروانى المتوفى سنة ٤٥٣ ، ورأينا الشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ يذكر طرفاً يسيراً من أخباره ومقتله فى « أماليه » ، ورأينا أبا العلاء المعرى فى « رسالة الغفران »[١] يشير إلى أدبه وعقله وتشيعه ومقتله ، كما نرى ابن رشيق فى كتابه « العمدة » يذكر بعض حوادثه ووقائعه وتطيّره ، على حين أن ابن شرف القيروانى معاصر ابن رشيق ومواطنه والمتوفى سنة ٤٦٠ يصفه فى بضعة أسطر فى كتابه « رسائل الانتقاد » ، كما نرى مؤرخ بغداد وصاحب تاريخها الكبير : الخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ يترجم له ترجمة طويلة ، ويذكر بعض أخباره وحوادث تشاؤمه فى قرابة أربع صفحات من كتابه الضخم « تاريخ بغداد » . فإذا ما بلغنا القرن السادس وجدنا ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ يترجم له فى وفيات سنة ٢٨٣ هـ فى كتابه « المنتظم » . وفى القرن السابع يذكره المؤرخ ابن طباطبا فى كتابه « الفخرى » وهو يتحدث عن وزارة إسماعيل بن بلبل وعن مبدأ العداوة بينه وبين الشاعر . كما نجد المؤرخ ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ يذكر شاعرنا فى وفيات سنة ٢٨٣ هـ .

---

(١) « رسالة الغفران » تحقيق بنت الشاطىء ص ٤١٩

وفى القرن الثامن نجد المؤرخ ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ يترجم لابن الرومى ويذكر بعض شعره فى كتابه « البداية والنهاية » . وفى القرن التاسع نجد المؤرخ المصرى ابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ يترجم لشاعرنا فى وفيات سنة ٢٨٣ هـ ترجمة فى أكثر من صفحة من الكتاب . فإذا ما مضى بنا البحث إلى القرن العاشر وجدنا عبد الرحيم بن أحمد العباسى [١] المتوفى سنة ٩٦٣ هـ يذكره فى كتابه « معاهد التنصيص » فيترجم له ويذكر طرفاً من أخبار تطيره ونوادره مع الأخفش . وفى القرن الحادى عشر نجد ابن العماد الحنبلى المؤرخ المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ يذكره فى كتابه « شذرات الذهب » فى وفيات سنة ٢٨٤ هـ ويذكر روايتين من روايات مصرعه .

هؤلاء هم الذين ترجموا لابن الرومى أو ذكروا بعض أخباره فى القديم ، على أن بجانبهم جماعة من الأدباء والنقاد استشهدوا بشعره أو عرضوه على محك النقد ، كأبى على القالى فى « الأمالى » ، وأبى هلال العسكرى فى « الصناعتين » و « ديوان المعانى » ، وابن أبى عون [٢] فى كتابه « التشبيهات » ، وبديع الزمان الهمذانى فى مقاماته ، والجرجانى فى « الوساطة » ، وابن الشجرى فى « الحماسة » ، وابن الأثير فى « المثل السائر » ، والثعالبى فى « خاص الخاص » ، والشريف المرتضى فى « الشهاب فى الشيب والشباب » ، وابن سنان الخفاجى فى « سر الفصاحة » ، وأبى حيان التوحيدى فى « الإمتاع والمؤانسة » ، والنويرى فى « نهاية الأرب » ، والعاملى فى « الكشكول » ، والعزولى فى « مطالع البدور » ، ويحيى بن حمزة العلوى فى « الطراز » .

وقد ذكروا أن ابن عمار معاصر ابن الرومى وصديقه عمل كتاباً فى تفضيله ومختار شعره ، وجلس يمليه على الناس . كما ذكر المستشرق الفرنسى كليمان [٣] هيوار أن الخالديين كتبا ترجمة حياة لابن الرومى ، وهما من أدباء القرن الرابع الهجرى . فما مصير هذه التراجم ؟ لعل الزمان أسدل عليها ستار النسيان .

---

(١) هذا هو صواب اسمه لا كما ذكر خطأ فى « ابن الرومى — حياته من شعره » ص ٧٠

(٢) من علماء القرنين الثالث والرابع وقد جمع فى كتابه النفيس المطبوع بكامبريدج سنة ١٩٥٠ أكبر عدد من تشبيهات ابن الرومى .

(٣) فى كتابه الفرنسى ص١٨٥ . وقد ذكر أحمد حسن الزيات فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » ص ٣٧٠ أن الذى كتب هذه الترجمة هو أبو سعيد الخالدى ، وقد نقل ذلك خطأ عن هيوار الذى يقول إن الأخوين الخالديين هما الكاتبان لترجمة ابن الرومى لا واحد منهما .

٢ ـ نسبه بين الروم والفرس

لقد ذكر الذين ترجموا لابن الرومى أو تحدثوا عنه فى زماننا أبياتاً قالها الشاعر لا تدع مجالا للشك فى أصله الرومى . والعقاد صاحب فضل كبير فى هذا الميدان ، إلا أنه قد وقعت لى تورية لطيفة للشاعر ذكرها العاملى فى كتابه « الكشكول » حيث يقول :

ورومية يوماً دعتنى لوصلها ... ولم أك من وصل الأغانى بمحروم
فقالت : فدتك النفس ما الأصل؟ إننى ... أريد وصالا منك؟ قلت لها رومى !

فإذا أضفنا هذا النص الطريف إلى بضعة النصوص التى ذكرها العقاد ، وخاصة قوله :

ونحن بنو اليونان قوم لنا حجى ... ومجد وعيدان صلاب المعاجم

خرجنا بما يشبه اليقين بأن شاعرنا رومى من ناحية أبيه . وإذا كان اسم جده جريج أو جورجيس كما ذكر ابن خلكان ، فإن المسعودى يسميه سريجاً ، ولعلها تحريف فى الطبع أو النسخ . وهذا الاسم اليونانى يضاف إلى مجموع الأدلة على رومية الشاعر . وليس غريباً أن يكون ابن الرومى رومى الأصل فى عصر كثر فيه الموالي والجواري من الروم . فلقد كان بلاط ابن طولون فى مصر يعج ويضيق بالعبيد من الروم[١] ، فما بالك ببلاط بغداد، وقد كانت الحروب بينها وبين الدولة البيزنطية سبباً فى كثرة الرقيق ؟

على أن ابن الرومى الشاعر العربى الكبير عريق فى العجمة من ناحية أبويه ، فأمه « حسنة » بنت عبد الله السجزى من إقليم سجستان كما يذكر المرزبانى فى « معجم الشعراء » ، فهى فارسية قح[٢] . وإذا كانت بلاد الروم قد أمدت الدولة العربية الإسلامية بالجوارى والقيان وأمهات الخلفاء ، فإن

---

(١) « ظهر الإسلام » ج ١

(٢) « الغدير » للشيخ عبد الحسين الأمينى ج ٣ ص ٣٣ . طبعة النجف

الفرس أمدت العرب برجال السياسة والإدارة والوزارة ، ولهذا نجد أكثر ممدوحى ابن الرومى من الفرس من أمثال بنى طاهر ، وآل المنجم ، وآل نوبخت ، وأبى القاسم التوزى وغيرهم . ولقد كان تأثير اليونانية فى شعر ابن الرومى موضع خلاف فى الرأى بين النقاد ، فالعقاد يغالى فيه ، وطه حسين يرى من الحق أن لا نغلو فى نسبة خصائص ابن الرومى إلى أصله اليونانى[1] .

٣ – صورته الجسمية

الحق أن اللوحة التى صورها العقاد لشخص ابن الرومى لا تقل براعة ولا جدّة عن اللوحة الدقيقة التى رسمها لشخصيته ؛ فقد صوره لنا برأسه الصغير المستدير ، وبنظرته الساهمة اللائح عليها الوجوم ، وبنحوله الذى تبين فيه العصبية ، وبلحيته الكثة ، وبالصلع والشيب الذى عجل إليه فى شبابه ، وببنائه الضعيف الذى اصطلحت عليه العلل والأسقام ، وبمشيته المختلجة التى هى ثمرة لاضطراب أعصابه ، وبظهره المتقوس حين ألحت عليه الشيخوخة . ولعل وصف المرزبانى للعلة السوداوية التى كانت تتحرك على الشاعر يترك للخيال أن يذهب بعيداً فى تصور ابن الرومى وهو فى حالات غضبه واضطراب نفسه . وقد صوره لنا الخطيب البغدادى متعمماً متدرعاً وهو يتردد على دار الوزير القاسم بن عبيد الله للمنادمة[2] . فلم كان شاعرنا يتعمم ؟ لقد كفانا هو مئونة الرد على هذا السؤال حين أجاب من سأله : لم تلزم العمة ؟ فقال :

يأيها السائلى لأخبره عنى لِمْ لا أزال معتجرا[3]
أستر شيئاً لو كان يمكننى تعريفه السائلين ما سترا[4]

---

(١) « من حديث الشعر والنثر » لطه حسين ص٢٣٦ . وانظر أيضاً « الرءوس » لمارون عبود ص ١٤١ ، و « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » لشوقى ضيف ص ٩٣ ، و « ابن الرومى » للعقاد ص ٣٠٨

(٢) « تاريخ بغداد » جـ ١٢ ص ٢٣

(٣) أى لابساً العمامة

(٤) « جمع الجواهر » ص ١٦

ويذكر القيرواني في « جمع الجواهر » أن شاعرنا كان أقرع الرأس ، وقد أخبر بعلة ذلك في قوله :

تعممت إحصاناً لرأسي برهة ... من القر يوماً والحرور إذا سفعْ
فلما وهى طول التعمم لمتى ... فأزرى بها بعد الأصالة والفرَع [١]
عزمت على لبس العمامة حيلة ... لتستر ما جرَّت على من الصلع [٢]

وقد استظهر العقاد أن ابن الرومي كان أبيض اللون « فذلك غير عجيب في رجل له جد من الفرس وجد من الروم » [٣] . ولكن ابن الرومي يأبى إلا أن يحيرنا دائماً ، فقد وقعتُ على نص عجيب لم يذكره مترجم لابن الرومي ، وجاء في « معجم الشعراء » للمرزباني ، وفيه أن شاعراً اسمه « فرسان العمى » قال يرد على ابن الرومي في مرثيته الجيمية للشهيد يحيى بن عمر العلوى :

قد سود الله بعد القلب صورته ... فوجهه مظلم الأمطار كالسبج [٤]

فالهاجي هنا يصف شاعرنا ابن الرومي المهجو بسواد الصورة وإظلام الوجه [٥] !

ليكن ابن الرومي أبيض الوجه أو أسوده ، وليكن طويل القامة أو قصيرها ! ولكن الذى لن يكون أنه كان مستوى النفس معتدل المزاج ، فقد كان فيه من المتناقضات ما سنعرضه في صورته النفسية ، وما يجمع لنا مناقضات عصر ابن الرومي في إنسان !

٤ ـ صورته النفسية

ا ـ التناقض والاضطراب :

لعل شخصية لم تجتمع لها طائفة من المتناقضات النفسية كشخصية ابن الرومي . فهو رجل غريب الأطوار والأدوار ، لا يستقر على حالة واحدة

---

(١) الفرع : طول الشعر
(٢) « جمع الجواهر » ص ١٧
(٣) « ابن الرومي » للعقاد ص ١١٠
(٤) السبج : بفتح السين والباء الخرز الأسود
(٥) « معجم الشعراء » ص ٣٢٠

من حالات النفس المستقرة الثابتة . تراه يمدح اليوم إنساناً ثم لا يلبث أن يذمه غداً ، وتراه يمدح هذا الزهر أو هذه الفاكهة اليوم ثم لا ينفك أن يذمهما بعد اليوم . لقد مدح المشمش، ووصفه بأنه قشر من الذهب المصفى حشى بالشهد اللذيذ الطعم ، ثم ذمه فى أبيات أخرى بأن كل غصن من أغصانه يغل مريضاً . . .[١] وذم البخل كأكره ما تكون الصفات فى الإنسان ، ثم عاد فمدحه والتمس للبخيل عذراً فى بخله حين قال :

لا تلم المرء على بخله ولمه يا صاح على بذله
لاعجبٌ بالبخل من ذى حجى[٢] يكرم ما يكرم من أجله

وقد يقال إن الزهر والورد والفاكهة والبخل لا تدرى فى ذاتها بمن مدحها أو هجاها ، ولكن ما ظنكم بالإنسان العاقل المتذكر يُمدح اليوم فيرفع إلى الأوج ، ويُذم غداً فيهبط إلى الحضيض ؟ ما ظنكم بالأخفش وقد هجاه ابن الرومى فأفحش ، ثم عاد يمدحه أقصى المدح ويصفه بأنه بحر من بحور العلم، يرده الظماء إلى الصواب فيسقيهم عللا ونهلا ؟ وما ظنكم برجل كابن عمار وكان صديقاً وصنيعة لابن الرومى ، فنراه وقد انقلب عليه يهجوه مر الهجاء ؟ مع أن ابن عمار لما مات الشاعر عمل كتاباً فى تفضيله ومختار شعره، وجلس يمليه على الناس ؟[٣]

ماذا نقول فى متناقضات ابن الرومى وجمعه بين الأضداد من الأشياء؟ أنقول إن ذلك راجع إلى طبيعته المتناقضة وأعصابه المضطربة ؟ أم نقول مع متلمس العذر له إن أحوال الناس والحياة هى التى دفعته إلى التناقض ، فليس به من حسد ولا حقد على الناس حين يحسد ، وإنما هو سخط على ظلم الحظوظ[٤] ؟ أم نقول إنه كان طفلا كبيراً فى حدة الطمع وقلة الحيلة وحب النفس ، فلم يكن حاسداً ولا شبيهاً بالحاسد[٥] ؟ أم نقول مع البلاغيين إن

(١) « نهاية الأرب » ج ١١ ص ١٤١ ، ١٤٢
(٢) الحجى : العقل
(٣) « معجم الأدباء » لياقوت ج ٣ ص ٢٣٩
(٤) « حصاد الهشيم » للمازنى ص ٢٦٨
(٥) « ابن الرومى » للعقاد ص ١٤٦

الصنعة غلبت عليه ، فاستعمل « التلطف » وهو أن يعمد الشاعر أو الكاتب إلى المعنى الحسن فيهجنه ، وإلى المعنى الهجين فيحسنه[١] ؟ أم نقول إنها روح المخالفة للمألوف المصطلح عليه، حتى يُعرف الإنسان على سبيل التخالف لا على سبيل التوافق ؟ فالناس يذمون الحقد وابن الرومى يمدحه ، والناس يمدحون الورد ، ولكن ابن الرومى يذمه ويهجوه بشرّ ما يكون من تشنيع الصورة وتشويه الجمال .

وقد يكون مدح ابن الرومى للحقد نتيجة للتقليد والسرق من غيره ، فقد روى صاحب[٢] « زهر الآداب » كلاماً لعبد الملك بن صالح فى الاحتجاج للحقد ، ثم نسب إلى ابن الرومى أنه أخذ هذا المعنى من عبد الملك وزاد فيه فى أبياته الضادية ، ثم ذكر بعد هذا أبياتاً يرد بها على نفسه ويذم ما مدح توسعاً واقتداراً . . . والتوسع والاقتدار هنا هما الصنعة البديعية البلاغية ، لا التعبير الصادق الصحيح عن الحقد ممدوحاً أو مذموماً . . .

ولعل حسد ابن الرومى للناس هو الرد الوحيد على حسد الناس له . فهو يعاملهم بمثل ما يعاملونه به ... وعلامَ يحسده الناس ولم يكن شاعرنا المسكين موضعاً للحسد ؟ ألم يقل هو فى قصيدته لأبى الصقر :

أيها الحاسدى على صحبتى العسـ ... ـر وذمى الزمان والإخوانا

ليت شعرى ماذا حسدت عليه ... أيها الظالمى إخائى عيانا ؟

وعلام يُحسد ابن الرومى وقد رأى غيره من الأدنياء يرتفعون وينعمون ، وبيته بيت مسكنة قد عشش الفقر فيه :

أبعد ما اقتطعوا الأموال واتخذوا ... حدائقاً وكروماً ذات تعريش[٣]

يحاسدونى وبيتى بيت مسكنة ... قد عشش الفقر فيه أى تعشيش ؟

إن شباك ابن الرومى فى الحياة كانت غير صائدات ولا ظافرات بالصيد السمين . على حين أن غيره من معاصريه لم يجهد نفساً ولم يلق شباكاً ألبتة ، ثم جاءهم الثراء والجاه العريض والدنيا المقبلة . ومن هنا كان سخطه وحقده ،

---

(١) « الصناعتين » لأبى هلال ص ٤٢٧ ، ٤٢٨

(٢) « زهر الآداب » ج ٢ ص ٦٦٠

(٣) « أمراء الشعر العربى » لأنيس المقدسى ص ٢٥٠

لقد كان يمدح فلا ثياب ، ويذكر المحاسن فلا يستمع له ، بل قد يُرَدُّ عليه مديحه ويقال له : خذ شعرك فامدح به غيرنا . . . كما فعل معه ابن المدبر ، فلماذا لا يغضب ولماذا لا يطيل ألسنته فى الناس ؟

واعجب ما فى ابن الرومى أن حقده وحسده جنيا عليه فى حياته ، ولكنهما وجدا بعد مماته بزمن طويل من يحتج لهما ويدافع عنهما[1] . حتى لقد قالوا إن حقده هو سبب عبقريته . . . وإن حقده بين الشعراء كحقد أبى حيان التوحيدى بين الكتاب[2] . . . ويلتمسون المعاذير لحقده بأنه رأى من فساد الناس والمجتمع ما رآه أبو حيان، الذى قهرته أحداث دهره على المشى فوق الأشواك[3] . إلا أن الفساد عندى لا يكون مسوغاً لحقد الحاقد ما لم يكن ذلك من طبيعة نفسه . فقد يفسد المجتمع ويتحلل، ولكن العاقل البرىء يخلص منه بالسلامة ، لا بالإيغال فى الحقد مع الحاقدين . . .

وإذا كان ابن الرومى يحب الحياة حقاً كما يقال فى الدفاع عنه، فلماذا لم يقبل الحياة بخيرها وشرها ، وحلوها ومرها ؟ ولماذا يريدها له خالصة من الأقذاء ؟ ولماذا يسخط على الواجدين والمجدودين من أصحاب الحظوظ ؟ ألم يكلفه ذلك ثمناً غالياً ، حين وقف بكل باب ، واستجدى كل إنسان ، وقصد الكريم واللئيم على حد سواء ؟ ثم ألم يعبر هو عن نفسه أصدق تعبير حين قال :

أسخطت إخوانى وأخفـــق مطمعى فبقيت بين الدور والأبواب[4]

ب ـــ التشاؤم والتطير

هناك من الناس من يتفاءلون بشيء ويتشاءمون من آخر ، ولكنهم لا يجعلون من ذلك شغلا شاغلا وهماً ناصباً . . . فكان النبى عليه السلام يتفاءل ويحب الاسم الحسن[5] ، ولكنه لم يكن يتطير أى يتشاءم . ولم نجد امرأ فى تاريخ الأدب العربى جاهليته وإسلامه بلغ منه التطير ما بلغ من ابن الرومى . . . حتى لقد تعابث به أصحابه وتندروا عليه وجعلوه سخرية وهزؤاً بالليل والنهار .

---

(١) « حصاد الهشيم » للمازنى ، و « ابن الرومى » للعقاد
(٢) « النثر الفنى فى القرن الرابع » لزكى مبارك جـ ٢ ص ١٣٣
(٣) المصدر السابق ص ١٣٧
(٤) « ديوان ابن الرومى » شرح الشيخ محمد شريف ص ٣٤٦
(٥) « العمدة » ص ٣٩

وقد استطاع الأخفش أن ينال منه فى ذلك كثيراً ، فكان يرسل من يقرع عليه باب داره ببكرة ويتسمى له بأقبح الأسماء ، فيمنعه ذلك من التصرف طول يومه [١] . بل تجرأ عليه كل إنسان فى بغداد غير الأخفش ، وطالعوه بما يكره من الأسماء والألقاب والأوصاف حتى يثيروا طيرته وتشاؤمه ، فيحبس نفسه فى بيته ولا يخرج . ولعل العابثين قصدوا من ذلك إثارته والعبث به وحبسه فى البيت حتى يتجنبوا مطالع وجهه . . . فالطيرة هنا كانت شعوراً مشتركاً بينه وبينهم . . . هم يتطيرون منه وهو يتطير منهم ! .

والحق أن عصر ابن الرومى نفسه مسئول إلى أكثر حد عن شيوع الشؤم والطيرة فى نفسه . فنرى الناس فيه يتفاءلون بأشياء ، ويتشاءمون من أشياء . فقد كان يقال عن ابن الجهم المعاصر له إنه « طيرة الشؤم وفأل التلف[٢] » . وكان الناس فى ذلك العصر يؤمنون بقدرة الكواكب والأفلاك على التحكم فى مصائرهم . . . والبحترى الشاعر ومعاصر ابن الرومى كان يؤمن بأن الليالى تعكس حظوظ الأشياء ، فقد بات المشترى فى إيوان كسرى وهو كوكب نحس[٣] . وأكثر من هذا ألم يكن خلفاء بنى العباس يستشيرون المنجمين فينظرون فى أحوال الفلك وهيئات اقتران الكواكب ثم يشيرون على الخلفاء بما يعملونه وبما لا يعملونه [٤] ؟

قلنا إن ابن الرومى كان يتشاءم من الناس والأسماء والأحداث ، كما كان الناس يتشاءمون منه . . . حتى اعتقدوا أنه منحوس ، وثبت فى يقينهم أنه رجل مشئوم على من يراه ، وأنه يجب أن يجانب ويحاشَى حتى لا يصيب الناس برشاش نحسه . وقوله لعبيد الله بن طاهر :

نحن ميامين على أننا   على أعاديك مشائيم

يدل على أنه كان موضع الاتهام بالشؤم والنحس ، فهو يؤكد للممدوح أنه — أى الشاعر — سعد عليه ، ونحس على أعدائه .

---

(١) « العمدة » ج ٢ ص ١٣٦

(٢) « التشبيهات » لابن أبى عون طبعة كامبريدج ص ٢٩١

(٣) « ديوان البحترى »

(٤) « تاريخ التمدن الإسلامى » لزيدان ج ٣ ص ١٨٩

وقد يضاف إلى علة العصر فى تطير ابن الرومى وشؤمه وتشاؤمه، علة الشاعر نفسه . . . فقد كان مريضاً ضعيف الأعصاب ، وكانت به علة سوداوية تتحرك عليه كما قال صاحب « معجم الشعراء » ، وكان أدبه أكثر من عقله كما قال أبو العلاء المعرى[١] ، أى أن خياله أكثر من قوة التعقل والتحليل فيه ، فهو لا يعلل الأشياء بعللها الطبيعية ، ولكن بعلل يخلقها الوهم أو الخيال أو ضعف الأعصاب أو المرض النفسي . وما رأيت شاعراً سخر من شاعر كما سخر أبو العلاء المعرى من ابن الرومى لتطيره . . . فقد جعل ابن الرومى اسم « جعفر » من الجوع والفرار . . . وكان يتشاءم منه ، فيسخر منه المعرى ويقول : لو هدى ابن الرومى لصرف اسم جعفر إلى النهر الجرار ، لأن الجعفر هو النهر الكثير الماء ، ولكن إخوان هذه الخليقة ، لا يحملون الأشياء الواردة على الحقيقة[٢] .

ج — حيوانية ونهم :

كان ابن الرومى إنساناً أحب الحياة وتشبث بها إلى أبعد الحدود ، ولكنه غالى حتى أورده حب الحياة إلى حيوانية متطرفة . . . فهو منهوم فى المآكل والمشارب نهماً جعل المؤرخين والمترجمين لا يغفلون عن ذكر هذه المزية أو المساءة فيه ! فالمؤرخ المسعودى يقول عنه إنه كان شرهاً نهماً[٣] ، وصاحب « جمع الجواهر فى الملح والنوادر » يقول عنه إنه كان منهوماً فى المآكل ، وهى التى قتلته . . . وكان معجباً بالسمك ، فوعده صديقه أبو العباس المرثدى أن يبعث له كل يوم براتب من السمك لا يقطعه ، ثم قطعه ، فكتب إليه الشاعر شعراً يعاتبه فيه[٤] . . .

ولقد تحير ابن الرومى المنهوم بين داعي شهوة الطعام وداعي فرض الصيام فى رمضان ، وهو فرض يحرمه لذاذات الطعام والشراب من ساعة الإمساك إلى

---

(١) « رسالة الغفران » شرح كامل كيلانى ص ٢٦٥

(٢) « رسالة الغفران » ص ٢٨٥

(٣) « مروج الذهب » ج ٤ ص ٢١٥

(٤) « جمع الجواهر » ص ٢٩٠

مغرب الشمس ، فرأيناه يهجو شهر رمضان هجاء لم نسمعه من شاعر مسلم . . .
وقد يُهجى رمضان فى الخفاء والسر ، أما أن يهجى علانية وفى شعر معاد مكرور
فذلك اجتراء لا يصدر إلا عن مثل ابن الرومى الهجَّاء الذى لم يسلم منه مخلوق ...
وإذا كان الناس يبارك بعضهم بعضاً بشهر الصيام فإن ابن الرومى لا يبرِّك به
ولا يرحب بمقدمه ، ويقول :

إذا برَّكت فى صوم لقــوم ... دعوت لهم بتطويل العذاب
وما التبريك فى شهر طويــل ... يطاول يومه يوم الحســاب؟
فليت الليل فيــه كان شهراً ... ومر نهــاره مــر السحاب
فلا أهلا بمــانع كل خــير ... وأهلا بالطعــام وبالشراب!

الحق أن الشهوة البطنية عند ابن الرومى تعبر عن نفسها تعبيراً صارخاً حين
يصف لنا الموائد وما عليها من صحاف ، وما فوق الصحاف من أطايب الطعام .
فوصفه للسمك الأبيض كمثل سبائك الفضة ، ووصفه للوزينج الذى كان
يستهديه من ابن بشر ، ووصفه للدجاجة التى ظل يقشر جلدها المحمر الأحمر
عن لحمها الأبيض فكأنه يقشر تبراً عن لجين . . . ووصفه للقطائف التى
ترضى الحلوق والحناجر . . . ووصفه للعنب الرازقى بأنه مثل مخازن البلور
لصفائه وشفافيته وأن له مذاق العسل ، ونفحة المسك ، ورقة الماء على الصدور ،
ووصفه للفطائر والرقاق والزلابية . . . كل أولئك يدل على أن شهوة البطن كانت
غالبة على ابن الرومى ، وأنه كان يتمتع بمناعم الطاعم والشراب سواء رآها — كما
رأى صانع الزلابية — أم استهداها ، أم أكلها على موائد المجدودين من أثرياء
عصره ! ولم يكن نهماً بالطعام فقط ، بل كان للخمر نصيب من معدته ومن
شعره ! ولعله كان يشرب الخمر تسلِّياً على هموم الدهر وتشاغلا عن أحداثه[١] .

ولقد أتى ابن الرومى من ناحية نهمه ومعدته . . . فقد ذكر — على اختلاف
الروايات فى مصرعه — أنه مات مسموماً . ، وأن السم دس له فى خشكنانجة[٢] .
فكان مصرعه فى شهوته بالطعام . . .

---

(١) « زهر الآداب » ج ٢ ص ٨٩٧
(٢) نوع من الكعك بالفارسية

٥ ــ تدينه وتشيعه

يقول صاحب موسوعة « الغدير »[١] إن ابن الرومى له فى مودة ذوى القربى من آل الرسول صلوات الله عليه وعليهم أشواط بعيدة ، واختصاصه بهم ومدائحه لهم ودفاعه عنهم من أظهر الحقائق الجلية . وابن الرومى متشيع سواء أكان ذلك بقصيدته الغديرية التى ذكرت فى كتاب « مناقب ابن شهراشوب » ج ١ ص ٥٣١ طبعة إيران ، أم بقصيدته القوية المتفجعة التى رثى بها الشهيد يحيى بن عمر العلوى الذى قام على العباسيين فقتلوه[٢] ، أم بقصيدته النونية التى علل فيها العلويين بالصبر حتى يهلك الله أعداءهم العباسيين . وليس عجيباً أن يصرح ابن الرومى بعدائه لبنى العباس وبتشيعه للعلويين مع أن أباه كان مولى لرجل من بيت العباسيين ، كما كان ممدوحوه من كبار رجال العباسيين وأقطاب دولتهم ، فإن فكرة المتشيع متى رسخت لا يبالى فى سبيلها بالشهادة ، على الرغم مما عندهم من الأخذ بالتقية . وليس أدل على ثبوت هذه الفكرة من أن ابن الرومى نظم مرثيته الرائعة الفاجعة فى الشهيد يحيى بن عمر ، وهو يعلم أنه سيثير بها سخط الخلفاء وسخط القادة الذين حاربوا الشهيد وقتلوه وجلسوا يتقبلون التهنئات بمقتله ، فعز ذلك على رجل من ولد جعفر بن أبى طالب ، فقال مخاطباً محمد بن عبد الله بن طاهر : أيها الأمير : إنك لتهنأ بقتل رجل لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حياً لعزِّى به[٣] . . . ومن عجب أن يكون هذا القائد هو ممدوح ابن الرومى أو هو الذى رثاه ابن الرومى حين مات بعد مقتل الشهيد يحيى العلوى بثلاث سنوات . وأعجب العجب من شاعرنا أنه كان يقصد ابن طاهر حين قال :

ألا أيها المستبشرون بيومه ... أظلت عليكم غمة لا تفرَّج !

لأن ابن طاهر هو الذى فرح واستبشر وجلس للهناءة بمصرع الشهيد ،

---

(١) « الغدير » ج ٣ ص ٣٠

(٢) « أمراء الشعر » للمقدسى ص ٢٧٣

(٣) « الفخرى » ص ٢١٩

ثم يعود ابن الرومى بعد ثلاث سنوات فيرثى ابن طاهر نفسه حين يموت . أهو وفاء منه لابن طاهر لأنه كان ولياً لنعمة الشاعر هو وأهل بيته ؟ فقسا عليه حين نادته العقيدة الشيعية يوم مقتل الشهيد ، وقضى له واجب الوفاء برثائه يوم مات ؟

والحق أنه لا وجه لإثارة الشك فى تشيع ابن الرومى كما صنع أبو العلاء المعرى فى رسالة الغفران . فهو يقول « إن البغداديين يدعون أنه متشيع ، ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجيمية ، وما أراه إلا على مذهب غيره من الشعراء»[١] . وقد عده ابن الصباغ المالكى فى « فصوله المهمة »، والشبلنجى فى « نور الأبصار » من شعراء الإمام الحسن العسكرى[٢] . وإذا أعوزنا شاهد آخر على تشيعه فإنه يحضرنا الآن نص للوزير أبى عبيد البكرى (صاحب كتاب « اللآلى فى شرح أمالى القالى ») ، فإنه يقول عنه : «كان يتشيع للطالبيين ويبغض مواليه»[٣] . . . .

وقد جمع ابن الرومى إلى التشيع الاعتزال ، وفى شعره ما يدل صراحة على ذلك ، والمعتزلة يقولون باختيار الإنسان لأفعاله وخلقه لها ، حتى يثبتوا لله العدل حين يحاسب الناس على أعمالهم التى ارتكبوها بمحض اختيارهم ، لا بطريق الجبر عليهم .

لقد كان ابن الرومى شاعراً مسلماً مؤمناً متديناً ، وما عرف عنه أنه اتخذ لنفسه مذهب الفلاسفة ، أو أنه تزندق ، أو كان ضعيف العقيدة مزعزع الإيمان، مثل بشار بن برد ومن لف لفه من الشعراء . . .

٦ – معيشته وأحواله

ا – التكسب بالشعر :

فى تاريخ الشعر العربى قديمه وحديثه أن شعراء اتخذوا من الشعر سبباً للكسب ، ووسيلة إلى العيش ، وصناعة لاجتلاب الرزق وإقامة الأود ،

(١) « الغفران » شرح كامل كيلانى ص ٢٦٨ ، ٢٧٣
(٢) « الغدير » ج ٣ ص ٣٠
(٣) « سمط اللآلى » ج ١ ص ١٦٠

وأن شعراء آخرين أنفوا من التكسب بالشعر وعدلوا عن المدح حتى لا يتهموا فى مروءتهم ... وأى نقص للمروءة ولجمال الشعر مثل أن يأخذ شاعر ثمناً على مدحه ، أو يجعل شعره سلعة للبيع والشراء ؟ لقد أخذ بعض الشعراء من الملوك كما فعل النابغة ، وأخذ بعضهم من الرؤساء كما صنع زهير بن أبى سلمى ، وتدنى الحطيئة وسقطت همته فأخذ ثمن المدح وفدية الهجاء من كل إنسان[١] ... وكان الممدوحون يثيبون أجزل الثواب . فأين مكان ابن الرومى من هذا ؟ لقد كان المسكين على صلة بالرؤساء والوزراء ومدحهم فهل جمع من المديح مالا ؟ وفيم إذن كان أنين الشكوى والبؤس والحرمان فى شعره ؟ إن فى ديوانه ما يدل على أنه امتلك ضيعة ودارين وبعض التحف التى كان منها قدح كان للرشيد ثم أهداه الشاعر إلى على بن يحيى المنجم . فلماذا الشكوى والسخط على الزمان ؟ إن فى شعره ما يدل على أنه كان يعانى من ضيعته العناء[٢] ، وأن الجراد قد أتى فى بعض السنين على زرعه[٣] . ولعله لم يؤت القدرة على استغلال ضيعته واستثمارها على خير الوجوه . ولقد روى لنا ابن تغرى بردى أن سائلا سأل ابن الرومى لم لا تشبه تشبيهات ابن المعتز ، فقال : « ذلك إنما يصف ما عون بيته لأنه ابن الخلفاء ، وأنا مشغول بالتصرف فى الشعر وطلب الرزق به »[٤] . فابن الرومى هنا يصرح بأنه يطلب الرزق بشعره ، ويتكسب بالمدح والهجاء . على أنه لم يبلغ من الكسب ما كان يريد . . . فقد قطع عنه الهجاء كريم العطاء . . . والناس لا يعطون المادح الهجّاء إلا للاتقاء . . . وهنا يكون العطاء قليلا ، والجزاء ضئيلا . . .

وما ظنكم برجل شاعر كبير لم يكن يستجدى المال فحسب ، وإنما كان يستجدى كل شىء . . . فقد ذكر ابن أبى عون — وكان معاصره أو قريباً جداً من عصره — أنه هجا ابن دليل النصرانى لأنه وعده نعلا — أى حذاء — فأخلف . وأنه عاتب ابن سهل النوبختى لأنه قطع عنه راتباً من الدقيق كان يجريه عليه[٥] . . . ولم ننس منذ قليل راتب السمك الذى كان يبعثه له كل

(١) « العمدة » لابن رشيق ج ١ ص ٥٢

(٢) « الديوان » شرح الشيخ شريف سليم ص ٤

(٣) « ابن الرومى » للعقاد ص ١٦٢

(٤) « النجوم الزاهرة » ج ٣ ص ٩٧

(٥) « التشبيهات » لابن أبى عون ص ٣٧٤ ، ٣٩٦

يوم صديقه أبو العباس المرثدى ثم قطعه .

وعلى الرغم من حبس ابن الرومى نفسه فى داره اتقاء للشؤم والتشاؤم فإنه كان يجد له سبيلا إلى موائد الكبراء ومجالسهم ، إلا أنهم كانوا يعدون ذلك منتهى الكرم منهم له والبر به . وكانوا يمنون عليه قبوله فى مجالسهم ، كأنهم أوصلوه باللقمة يأكلها معهم إلى أقصى مطلوبه . . . ولعلهم كانوا يتخذونه ضحكة وسخرية ومجالا للعبث . . . فمنهم من يبعث له بالعبث إلى باب داره ، كما كان يفعل الأخفش وغيره معه . . . ومنهم من يحضر ابن الرومى نفسه إلى مجلسه أو مائدته ليطيب له العبث به كما يشاء . . . مسكين والله هذا الشاعر الواجد المحروم ، الظالم المظلوم ! !

ب — مصرع الشاعر :

لقد كانت حياة ابن الرومى مجمعاً للمتناقضات ، فلم لا تكون وفاته مجمعاً للمتناقضات ؟ إن الرجل غرقان فى التضارب والاضطراب من رأسه إلى قدمه ، ومن شبابه إلى هرمه ، فلم لا يكون موته حادثاً يقال على سبيل التضارب لا على سبيل الاتفاق ؟ وإذا تركنا الآن جانباً كيف لاقى منيته ، فإننا لن نترك الكلمات التى رددها على فراش الموت . فهى محل اختلاف بين الرواة . وبعض الناس يلاقون الموت صامتين فلا تنسب إليهم عبارة فى آخر ساعاتهم من الدنيا وأول ساعاتهم من الآخرة . ولكن ابن الرومى نسبت إليه أقوال وأشعار . . . فالتوحيدى يروى عن أحد الرواة قوله : دخلنا على ابن الرومى فى مرضه الذى قضى فيه فأنشدنا قوله :

ولقد سئمت مآربى فكأن أطيبها خبيثُ
إلا الحديث فإنه مثل اسمه أبداً حديث[1]

وأبو عثمان الناجم يروى أنه قال فى علته الأخيرة وقد ألح به البول :

غداً ينقطع البول ويأتى الويل والعول
إلا إن لقاء الله هول دونه الهول[2]

---

(١) « الإمتاع والمؤانسة » ج ١ ص ٢٧

(٢) رسالة ابن القارح ص ٣٥

والخطيب البغدادى يروى أنه قال وهو يجود بنفسه :

غلط الطبيب على غلطة مورد عجزت موارده عن الإصدار
والناس يلحون[١] الطبيب ، وإنما خطأ الطبيب إصابة الأقدار[٢]

أما بهاء الدين العاملى فيروى أن ابن الرومى لما سم ودب السم فيه واشتد شربه للماء أنشد :

أشرب الماء إذا ما التهبت[٣] نار أحشائى كأحشاء اللهب
فأراه زائداً فى حرقتى فكأن الماء للنار حطبْ

هذه هى الأقوال التى يعزى إلى ابن الرومى أنه قالها فى ساعات نزعه ، وهى مختلفة باختلاف الروايات فى مصرعه . فابن خلكان يقول إن الوزير القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الخليفة المعتضد كان يخاف من فحش هجائه ، فدس عليه ابن فراش فأطعمه خشكنانجة مسمومة وهو فى مجلسه ، فلما أحس بالسم قام ، فقال له القاسم : إلى أين تذهب ؟ فقال : إلى الموضع الذى بعثتنى إليه ، فقال له : سلم على والدى ! فقال : ما طريقى إلى النار ! ثم خرج من مجلسه ، وما لبث أياماً حتى مات .

هذى إحدى الروايات فى مقتل شاعرنا ، وهى تدل على أن القاسم هو سبب قتله، ويضعِّف العقاد هذه الرواية ، لأن والد القاسم مات بعد ابن الرومى ببضع سنوات ، فليس معنى لأن يقول القاسم له : سلم على والدى ! وهو لا يزال حياً[٤] ، إلا أن المؤرخ ابن طباطبا يقرر أن القاسم وزير المعتضد هو الذى قتل ابن الرومى بالسم وكان منقطعاً إليهم — أى إلى آل وهب — يمدحهم وكانوا يقصرون فى حقه فى بعض الأوقات فهجاهم[٥] .

على كل حال فقد مات شاعرنا مسموماً سواء أكان بيد الوزير القاسم أم بيد والده عبيد الله . . . ومات كما يروى ابن القارح وعند رأسه إناء فيه ماء

---

(١) يلحون : يلومون .
(٢) « تاريخ بغداد » ج ١٢ ص ٢٦
(٣) « الكشكول » للعاملى ص ٦٥
(٤) « ابن الرومى » للعقاد ص ٢٦٣
(٥) « الفخرى » ص ٢٣٢

مثلوج ، وخنجر مجرد ! وقد كان الخنجر ليعجل به موتته لو ألحَّ به الألم ، ولكنه مات بغير خنجر . . . ويعلق الفيلسوف الشاعر المعرى على هذا قائلا :

كم ظان أنه يهلك بسيف فهلك بحجر[1] . . .

---

(١) « رسالة الغفران » شرح كامل كيلانى ص ٢٨٦

الفصل الثالث

جوانب ابن الرومي

١ – ديوانه

يقول ابن النديم صاحب « الفهرست » المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، أى بعد ابن الرومى بقرن من الزمان ، إن شاعرنا كان له ديوان على غير الحروف رواه عنه المسيبى ، ثم عمله الصولى على الحروف، وجمعه أبو الطيب ورّاق ابن عبدوس من جميع النسخ ، فزاد على كل نسخة مما هو على الحروف وغيرها نحو ألف بيت[١] . وفى ابن خلكان أن الذى روى الديوان هو المتنبى لا المسيبى[٢] ، وأغلب الظن أن ذلك خطأ فى الطبع . وقد تابع مؤلفا كتاب « الوسيط » ابن خلكان فى الوهم أو فى التحريف المطبعى ، فقالا عن ابن الرومى : يكفيه فضلا أن يكون المتنبى أحد رواة ديوانه والآخذين عنه[٣] . ولن يكون هذا لأن المتنبى ولد بعد وفاة ابن الرومى بعقدين من السنين .

ونرى ابن الأثير وهو يؤرخ لحوادث سنة ٢٨٣ هـ يذكر وفاة ابن الرومى ، ويقول إن ديوانه معروف[٤] . أى أن ديوان شاعرنا كان متداولا بين الناس فى الثلث الأول من القرن السابع الهجرى . ويذكر لنا صاحب « كشف الظنون » أن الشيخ الرئيس ابن سينا انتخب ديوان ابن الرومى وشرح مشكلات[٥] شعره. ويروى لنا مؤلف «الغدير» أن ابن سينا قال : مما كلفنى أستاذى فى الأدب حفظ ديوان ابن الرومى ، فحفظته مع عدة كتب فى ستة أيام ونصف يوم[٦] .

---

(١) « الفهرست » ص ٢٣٥

(٢) « وفيات الأعيان » ج ١ ص ٤٤٢

(٣) انظر « الوسيط » ص ٢٦٨ فى ترجمة ابن الرومى

(٤) « الكامل » ج ٦ ص ٨٤

(٥) « كشف الظنون » ج ١ ص ٤٩٨

(٦) « الغدير » ج ٣ ص ٣٠

فأين هذا الديوان الذى زاد عليه المتزيدون ألف بيت ، والذى حفظه فيلسوفنا العظيم ابن سينا فى القرن الرابع وهو لم يبلغ السابعة من عمره ، والذى كان متداولا معروفاً فى القرن السابع ؟ لقد كانت الزيادة على الديوان فى القديم سبباً للنقص منه فى عصرنا هذا . . . فإن الشيخ محمد شريف سليم لم يطبع من ديوان شاعرنا إلا إلى حرف الحاء ، وقد بلغ ذلك سبعمائه صفحة تقريباً ، فماذا يكون لو كمل الديوان كله إلى نهاية حروف الهجاء ؟ أما كامل كيلانى فقد جمع أشعاراً من الديوان ولكنها ليست الديوان كله ، ومن باب المجاز أن تسمى ديوان ابن الرومى . إلا أن له فضل تعريفنا بشعر ابن الرومى وعرض ألوان كثيرة منه منذ أكثر من ربع قرن من الزمان .

وقبل هاتين المجموعتين من شعر ابن الرومى جمع لنا محمود سامى البارودى فى « مختاراته » أفانين من شعر شاعرنا فى المدح والصفات والرثاء والهجاء والنسيب .

ولكن ذلك كله يحملنا على التمنى بأن يهيئ الله لديوان ابن الرومى من يخرجه إخراجاً علمياً دقيقاً على أحدث أصول النشر ، فإن من الغبن لشاعر المعنى العميق الدقيق أن يظل ديوانه أكثر من ألف عام ، ينتظر الكمال والتمام .

٢ – ابن الرومى عند النقاد

ا – عند نقاد العرب :

قد يكون ابن الرومى أغفل بعض الإغفال عند الإخباريين والمترجمين وكتاب الطبقات ، فإن حياته – كما أسلفنا – كانت نتفة من هنا ونتفة من هناك . إلا أن النقاد منذ القديم قد أنصفوه بعض الإنصاف حين عرضوا بعض أشعاره على المحك ، وحين نقدوه نقد الصيرفى الخبير ، وحين أبدوا فى معانيه من الرأى ما لا يدع مجالا للشك فى عمقه وتقصيه . فالمرزبانى فى « الموشح » يعقد لنا موازنة طريفة بين البحترى وابن الرومى ، وخاصة فى الهجاء ، فلا يلبث أن يشهد لشاعرنا وقصور البحترى عن مداه [1] . أما ابن رشيق المتوفى سنة ٤٦٣ هـ فيقول

(١) « الموشح » ص ٣٣٦

عنه إنه كان ضنيناً بالمعانى حريصاً عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده فلا يزال يقلبه ظهراً لبطن ، ويصرفه فى كل وجه وإلى كل ناحية حتى يميته ، ويعلم أن لا مطمع فيه لأحد[١] . ثم نراه فى مواطن آخر يقول : أكثر المولدين اختراعاً وتوليداً فيما يقول الحذاق أبو تمام وابن الرومى [٢] . أما ابن شرف القيروانى — معاصر ابن رشيق — فيصف شاعرنا بأنه شجرة الاختراع ، وثمرة الابتداع ، وله فى الهجاء ما ليس له فى الإطراء ، فتح فيه أبواباً ، ووصل منه أسباباً[٣] . ويشهد له المعرى بأن أدبه كان أكثر من عقله[٤] . . .

ولقد كان لابن الرومى فى القرن الرابع جماعة يتعصبون له ويفضلونه على شاعر كالمتنبي ، فنرى الجرجانى يتعرض لهؤلاء فيذكر لهم أن ابن الرومى لا يظفر من قصائده — وهى طوال — بالبيت الواحد يروق . وقد تنسلخ قصائد من شعر ابن الرومى وهى واقفة تحت ظلها . . . لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافى وانتظار الفراغ . . . على أن القصيدة من شعر أبى الطيب لا تخلو من أبيات تختار ، ومعان تستفاد ، وألفاظ تروق وتعذب ، وإبداع وتصرف يدلان على الذكاء والاقتدار [٥] . وقد يكون الجرجانى هنا مائلا مع المتنبى على ابن الرومى ، مع أنه كان قاضياً فوق عمله فى النقد الأدبى . . .

على أن رأى الجرجانى هنه لا يشغلنا بحال عن رأى ابن خلكان ، وإن كان مؤرخاً أكثر منه ناقداً ، فهو يقول : إن شاعرنا صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب ، يغوص على المعانى النادرة فيستخرجها من مكامنها ، ويبرزها فى أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ، ولا يبقى فيه بقية[٦] .

ولقد وقف أبو هلال العسكرى موقف الناقد المنصف غير المتحامل على ابن الرومى فى « ديوان المعانى » ، فهو يختار له من جياد المعانى فى أغراض كثيرة من الشعر ، ثم يعلق عليها بداءة أو انتهاء بمثل قوله : وقد أبدع ابن الرومى .

---

(١) « العمدة » ج ٢ ص ١٨٥

(٢) المصدر نفسه ص ١٧٧ ج ١

(٣) « رسائل الانتقاد » لابن شرف ص ٢٠

(٤) « الغفران » ص ٢٦٥

(٥) « الوساطة » للجرجانى ص ٥٢

(٦) « وفيات الأعيان » ج ١ ص ٤٤٢

وليس لأحد فى ملاحتها وعلو جودتها وكثرة معانيها شيء[١]. إلا أن ذلك لا يمنعه أن يقول عن أبياته الجيمية فى وصف قينة : إنها أبيات سخيفة ، تركت أكثرها لسخفه[٢] . أما الثعالبى فى « خاص الخاص » فيروى لابن الرومى طائفة من غرر شعره ويعلق عليها بمثل قوله : لم أسمع فى الهجاء بالجبن أبلغ وأملح وأطرف من قول ابن الرومى فى سليمان بن طاهر ، ثم يذكر الأبيات[٣].

ولقد أعجب الحصرى القيروانى بابن الرومى فروى له كثيراً من جياد معانيه فى كتابه « زهر الآداب » ، وقد قدم لشاعرنا بعض أبياته النونية فى القيان بقوله : ومن أحسن ما قيل فى صفة القيان قول ابن الرومى . ثم ذكر الأبيات[٤] . وقد ورد ذكر ابن الرومى فى « زهر الآداب » أكثر من مائة مرة .

ولابن الرومى عند ابن أبى عون — وهو قريب من عصره — نصيب من التقدير والاستحسان ، فهو يذكره فى مواطن كثيرة جدّ الكثرة من كتابه « التشبيهات » . وكذلك فعل أبو على القالى فى « الأمالى » ، فهو يقف عند الجياد من معانى شاعرنا وقفات قصيرات ، ولكنها صائبات ، حتى لنرى الحصرى القيروانى يكاد ينقل نص تعليقه على أبياته فى وصف القيان[٥] .

ونمضى مع الزمن فى سيره فنرى الإمام البلاغى الناقد يحيى بن حمزة العلوى صاحب « الطراز » ومن أدباء القرن الثامن يذكر ابن الرومى فى مواطن الاستشهاد على فنون المعانى وألوان البيان وعجائب البديع ، فلا يفوته أن يقع على دقائق تخلصه ، وغرائب تمثيله ، ولطائف مدائحه[٦] .

ب — عند المستشرقين :

فرغنا من الحديث عن ابن الرومى فى كفة الميزان عند أدباء العرب ونقادهم

---

(١) « ديوان المعانى » لأبى هلال العسكرى ج ١ ص ٢٠٩

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٥

(٣) « خاص الخاص » للثعالبى ص ١٠٢

(٤) « زهر الآداب » ج ٢ ص ٦١١

(٥) « الأمالى » ج ١ ص ٢٣١

(٦) « الطراز » ص ١٨٢ ، ج ٢ ص ٤ ، ٣١٠ ، ٤٠٢

القدامى ، أما ابن الرومى فى مواطن الكشف والدراسة عند المستشرقين فإن نيكلسون لم يشر إليه ولو بأوجز الإشارات فى كتابه المشهور عن تاريخ الأدب العربى (١) . وعجيب أن لا يدخل شاعرنا فى حساب نيكلسون وهو يتحدث عن الاتجاهات الجديدة فى الشعر فى العصر العباسى ، على حين أن المستشرق الألمانى بروكلمان يتحدث عن شاعرنا فى الجزء الأول من كتابه المشهور فى تاريخ الأدب العربى (٢) ، ثم يضيف فى تكملة الكتاب إضافات جديدة عن مصادر ابن الرومى ومراجعه فى الصفحات من ١٢٣ إلى ١٢٥ . ويتتبع ابن الرومى عند المحدثين ممن درسوه أو كتبوا عنه أو نشروا شعره . أما دائرة المعارف الإسلامية فقد عرفت بشاعرنا فى سطور وجاز (٣) . وإن كانت الترجمة العربية قد وهمت بين الخليفة المعتضد وبين وزيره القاسم بن عبيد الله .

وفى الاستشراق الفرنسى نجد الأستاذ كليمان هيوار (٤) يذكر شاعرنا ويقول عنه إن أشعاره معجبة لجمال التعبير وأصالة الفكر فيها ، كما يلاحظ المرء فيها — على الخصوص — جدة الأفكار وطرافتها .

وحين اختار المستشرق الفرنسى إميل درمنجهم أجمل ما فى النصوص العربية وترجمها إلى اللغة الفرنسية فى كتابه المطبوع بباريس سنة ١٩٥٠ (٥) لم ينس أن يختار لابن الرومى أربع قصائد منهن أبياته فى رثاء ولده الأوسط ، وأبياته فى المغنية وحيد ، وبيتاه فى حرارة الشوق حتى مع العناق ، وهما هذان البيتان :

أعانقها والنفس بعد مشوقة ... إليها ، وهل بعد العناق تدان ؟
وألثم فاها كى تزول حرارتى ... فيشتد ما ألقى من الهيمان !

وأخيراً نجد المستشرق الإنجليزى روفن جست R. Guest يخرج

---

(١) "Literary History of The Arabs"

(٢) Gesch. D, "Arab Litt."

(٣) الترجمة العربية للدائرة مادة ابن الرومى . المجلد الأول .

(٤) صفحة ٨٣ من كتابه .

(٥) "Les Plus Beaux Textes Arabes."

كتاباً عن ابن الرومى يكتب بالإنجليزية ، ويطبع فى لندن(١) ، وتظهر فيه بعض النصوص الشعرية بالحروف العربية . وهو دراسة رصينة لشاعرنا رجع فيها المستشرق إلى كثير من المصادر وخاصة كتاب العقاد . فيكون كتاب جست — فى مبلغ علمنا — الكتاب الوحيد عن ابن الرومى بلغة أجنبية ، كما كان كتاب العقاد الكتاب الوحيد والمرجع الوثيق فى لغة الضاد . . .

٣ — شاعريته ومعانيه وصوره

لابن رشيق القيروانى رأى فى شاعرية ابن الرومى لا بأس من إيراده هنا ونحن نتحدث عن شاعرية الرجل . فهو يقول إن ابن الرومى أولى الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه ، وحسن افتنانه(٢) . ولكن أين مكامن الشاعرية عند ابن الرومى ؟ أهى فى تلك المعانى الدقيقة العميقة التى يغوص عليها الشاعر ويستخرجها من مكامنها ؟ أهى فى اختراع المعانى وتوليدها والتصرف فيها على كل وجه ؟ أهى فى انطباع اللفظ وسلامة العبارة من العيوب ؟ إن ابن الرومى نفسه يدلنا على مكامن شاعريته حين نقرأ فى « جمع الجواهر » هذه العبارة : قال ابن الرومى لرجل أنشده شعراً سليماً من العيوب مطبوعاً عارياً من تدقيق المعانى : نحن — أعزك الله — نحب السلامة مع الغنيمة(٣) . فهو لا يرضى من الغنيمة أن يؤوب بأدنى ميسور وأهون محصول . . . ولكنه لا يزال يتعمق المعنى حتى يصل إلى قراره المكين .

وقد يكون تعمق المعنى يحمل بعض التبعة فيما جره على ابن الرومى من طول النفَس فى القصيدة ، فهو لا يترك المعنى حتى يستهلكه أو حتى « يميته » كما يقول ابن رشيق . ولقد يلح ابن الرومى على ترديد المعنى والتصرف فيه حتى ليظن ظان بأنه يسىء ظنه بفهم الناس له . . .

---

(١) Life and works of Ibn Erroumi

(٢) « العمدة » ج ١ ص ١٩٤

(٣) « جمع الجواهر » للحصرى ص ٢٣٤

ولعل إلحاح ابن الرومى فى تقصى المعانى هو الذى جعل من شعره — فى مجموعه — شيئاً غريباً على الذوق العربى . . . فالشاعر العربى لا تألف عقليته التحليل وإدارة المعنى على كل وجه ، وإنما الشعر عنده لمح تكفى فيه الإشارة واللمحة الخاطفة . ولعل هذا هو الذى حدا بشاعر كالبحترى — وكان معاصراً لابن الرومى — أن يقول :

كلفتمونا حدود منطقكم   والشعر يغنى عن صدقه كذبه
والشعر لمح تكفى إشارته   وليس بالهذر طولت خطبه [١]

وإذا كان بعض الرأى فى ابن الرومى أنه تأثر بيونانيته فما يتعلق بتعمق المعانى والوحدة فى القصيدة، فإن أكثر الرأى على أن هذا التأثر بالروم لم يكن فى أكثر شعره ، وأن ابن الرومى لم يمش مع « الوحدة » فى كل ما نظمه ، فهناك مقطوعات أو قصائد تتم فيها الوحدة ، وهناك مطولات تنعدم فيها « الوحدة » ويصبح الشعر فيها لمحاً وخطرات متقطعة خاطفة على غرار الشعر العربى كله [٢]

ولم يكن ابن الرومى هو المفرد العلم من شعراء عصره النازع إلى التحليل والتعمق واستعمال المنطق فى الشعر مما عابه البحترى . فقد كان أبو تمام — وقد مات وابن الرومى غلام — شاعراً نزاعاً إلى المنطق وإلى العقل أكثر من نزوعه إلى الخيال ، كما كان شديد النزوع إلى التعمق فى المعانى وتقصيها إلى أبعد الحدود [٣]. وقد بلغ الولوع بالمعانى عند أبى تمام وابن الرومى أنهما أكثرا من توكيد المعنى بالمعنى فى شعرهما ، كأن الثانى حجة على الأول واستشهاد له . ولم يجد أبو هلال العسكرى من يمثل له بشعر الاحتجاج لتوليد المعانى غير ابن الرومى وأبى تمام ، وقلة من مثل بشار [٤].

---

(١) الهذر : الهذيان والتخليط فى الكلام . وانظر القصيدة كاملة فى ديوان البحترى ص ٣٨

(٢) انظر فى معرض هذا الرأى : المقدسى فى « أمراء الشعر » ، وشوقى ضيف فى « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » ، وطه حسين فى « من حديث الشعر والنثر » ، ومارون عبود فى « الرءوس » وانظر العقاد فى « ابن الرومى » والمازنى فى « حصاد الهشيم » .

(٣) « الصناعتين » ص ٤١٦

(٤) « فن التشبيه » لعلى الجندى ج ٢ ص ٢١٨

والحديث عن شاعرية ابن الرومى يسوقنا إلى الحديث عن تشبيهاته ، فقد سئل : لم لا تشبه تشبيهات ابن المعتز؟ فأجاب بأن هذا إنما يصف ماعون بيته ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . . . فتشبيهات الشاعر ينزعها من بيئته ويأخذها من وسطه الذى يعيش فيه . . . كذلك الشاعر الذى شبه ممدوحه الخليفة بالكلب فى الحفاظ على الود وبالتيس فى مصارعة الخطوب ، فلما تحضر وترك البادية مدح الخليفة المتوكل برائية رقيق مطلعها :

عيون المها بين[١] الرصافة والجسر ... جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى[٢]

ويخيل إلى أن حكاية ابن الرومى وابن المعتز فى التشبيهات قد وضعت فيما وضع للإزراء على ابن الرومى وتنقصه . فقد جمع له رجل قريب من عصره — وهو ابن أبى عون — مئات من التشبيهات لا يقل بها قدراً عن شعراء التشبيه البديع . على أن ابن الرومى قد برع فى « التمثيل » وهو أدق من التشبيه وأكثر لطفاً وأجمل خفاء . فقد يكون قصارى الشاعر المشبه أن يشبه ممدوحه بالبحر فى الجود والقمر فى السناء ، والسيف أو القدَر فى المضاء . ولكن ابن الرومى يمدح أبا القاسم بهذه الأبيات :

إذا أبو قاسم جادت لنا يده ... لم يحمد الأجودان : البحر والمطر
وإن أضاءت لنا أنوار غرته ... تضاءل النيران : الشمس والقمر
وإن نضا[٣] حده أو سلّ عزمته ... تأخر الماضيان : السيف والقدر
من لم يبت حذراً من سطو صولته ... لم يدر ما المزعجان : الخوف والحذر
ينال بالظن ما يعيا العيان به ... والشاهدان عليـــه : العين والأثر

ولقد وقف الشاعر الأديب البلاغى يحيى بن حمزة العلوى عند هذه الأبيات وقفة الإعجاب والاستغراب[٤].

---

(١) المها : جمع مهاة وهى بقرة الوحش ، والرصافة مكان بالجانب الشرق من بغداد .
(٢) هذا الشاعر هو على بن الجهم . وانظر هذه القصة فى « محاضرة الأبرار ». وفى « ديوان ابن الجهم » تحقيق خليل مردم بك .
(٣) نضا حده : أى جرد عزيمته
(٤) « الطراز » للإمام يحيى العلوى ج ٢ ص ٤

إن من الظلم لابن الرومى أن لا نضعه فى التشبيه فوق قدر ابن المعتز ، فتشبيهات ابن المعتز بصرية حسية لأنها تشبيه المبصرات بعضها ببعض[١]. فتشبيهه زهرة الآذريون — أو عباد الشمس — بمداهن الذهب التى فيها بقايا مسك ، وتشبيهه زهر النرجس بمداهن الدر المحشوة بالعقيق إنما هو تشبيه حسى لا جمال فيه إلا بذكر المشبه به شيئاً غريباً أو نفيساً أو من لطائف التحف والجواهر . أما تشبيهات ابن الرومى فهى معنوية عميقة تتجاوز الواقع الملموس إلى البعيد الذى لا يصاد إلا بالخيال العجيب . أليس تشبيهه للرقاقة فى يد صانعها — وليس بين كونها عجينة مكورة وفطيرة مرققة إلا بمقدار ما تنداح الدائرة فى الماء حين يلقى فيه بالحجر — أليس ذلك تشبيهاً يعيا أمامه صناع التشبيه ممن لم تواتهم الفطرة الأصيلة والخيال العميق ؟

على أن ابن الرومى لم يقصر عن ابن المعتز فى تشبيه المحسوس بالمحسوس الطريف ، حتى يقال إنه اعترف فى الحكاية البادى عليها الوضع بأنه أقل من ابن المعتز فى هذا النوع ، لأن ابن المعتز خليفة أو ابن خليفة يصف ماعون بيته . . . فتشبيه ابن الرومى للعنب الرازقى بقوله :

ورازقى مخطف[٢] الخصور ... كأنه مخازن البلور[٣]

قد ضمنت مسكاً إلى الشطور ... وفى الأعالى ماء ورد جورى[٤]

لم يبق منه وهج الحرور ... إلا ضياء فى ظروف نور

— هو مثل تشبيهات ابن المعتز الحسية ، وذلك فى البيت الأول ، أما تشبيه ماء العنب فى الحبة بالضياء فى وعاء النور فذلك من دقائق الاحتيال ولطافات الخيال . . . ومرة أخرى نرى ابن الرومى يشبه تشبيهاً حسياً لا يقل عن تشبيهات ابن المعتز ، فهو يقول فى الغزل :

سقى الله قصراً بالرصافة شاقنى ... بأعلاه قصرىٌّ[٥] الدلال رصافى

(١) « أسرار البلاغة » لعبد القاهر الجرجانى ، و « فن التشبيه » لعلى الجندى

(٢) مخطف الخصور أى ضامر الخصر

(٣) « نهاية الأرب » ج ١١

(٤) الورد الجورى : هو نوع جيد من الورد ينسب إلى مدينة جور من مدن فارس

(٥) قصرى الدلال أى محبوب منسوب إلى القصور ودلالها

أشار بقضبان من الدر قمعت[١] يواقيت حمراً ، فاستباح عفافى[٢]

فبنان هذا المحبوب فى بياضها وحمرة رءوسها كقضبان من الدر لها أقماع من الياقوت الأحمر . . . أليست هذه الصورة الحسية مثل صورة ابن المعتز لزورق من الفضة قد أثقلته حمولة من العنبر ، فى وصف الهلال ؟

* * *

الحق أن صور ابن المعتز حسية لا روح فيها ولا حياة . فهى تماثيل من ذهب وفضة وياقوت وعنبر وزبرجد وأحجار كريمة وغير ذلك ، ولكنها تنقصها الحيوية والحركة . . . أما صور ابن الرومى حين يشبه ، وحين يصور ، وحين يصف ، فهى فياضة بالحياة والحركة وغرائب المفارقات . فصوره للثقيل ، والجبان ، وصاحب اللحية العريضة ، والقبيح الوجه الذى وجهه أولى من العورة بالستر . . . والأحدب الذى يبدو كأنما صفعت قفاه مرة وأحس ثانية للصفعة فتجمع لها . . . كل هذه صور لا تثير فينا الضحك بل تثير فينا الإعجاب بالاحتيال على المعنى بمثل هذه الدقة واللفتة العميقة والتنبه الواعى لمثارات الضحك . . . وسنعرض بعض هذه الصور فى الفصل الرابع من هذا الكتاب حيث هناك مكانها من الاستشهاد .

٤ – صياغته الشعرية وألفاظه

لو أن ابن الرومى اهتم بتجويد اللفظ والعبارة اهتمامه بتحليل المعانى وتعمقها لاجتمع فيه من ذلك الشاعر الكامل . ولعل عنايته بالمعنى قد طغت على مكان التعبير عنده فهو لا يبالى متى وقع له المعنى الجيد العميق البعيد فى أى ثوب . وقد يتهم شاعرنا بندرة الجزالة والرصانة عنده ، وبعدم المتانة فى لفظه[٣] . ولكن قد يقع له المعنى الجيد فى العبارة المرضية واللفظة الجيدة . فحين يقول أبو العتاهية :

---

(١) قمعت أى ركبت عليها أقماع .

(٢) ابن رشيق ج ١ ص ٢٠٤ ، وليس هذان البيتان فيما لدينا من مجموعات شعر ابن الرومى

(٣) « من حديث الشعر والنثر » ص ٢٣٥

حلاوة عيشك ممزوجة فما تأكل الشهد إلا بسم

فإن المعنى صحيح إلا أن العبارة غير مرضية ولا ذيقة . ولكن ابن الرومى حين يعبر عن هذا المعنى فإن العبارة لا تخونه، ولكنها تأتى مع جمال المعنى على قدر سواء . . . اسمعه وهو يقول :

وهل خلة معسولة الطعم تجتنى من البيض إلا حيث واش يكيدها ؟
مع الواصل الواشى ، وهل تجتنى يد جنى النحل إلا حيث نحل يذودها؟ (١)

وابن الرومى فى الأغلب حين يقع له المعنى الجيد فإن اللفظ بعد هذا لا يهمه ، فقد يختار اللفظ الغريب الحوشى ويؤثره على المألوف البليغ . وكثيراً ما نجد فى شعره « اللصاب » بدلا من شعاب الوادى ، و « السخاب » بدلا من القلادة فى العنق من القرنفل وغيره ، و « المرث » بدلا من الحليم الصبور فى الخصام ، و « القفد » بدلا من الصفع على القفا بباطن الكف ، وغير ذلك عشرات وعشرات من الكلمات التى كان غيرها من الجزل المألوف يغنى غناءها ، ويسد مسدها . ولكن لعل ابن الرومى يُدل بقدرته اللغوية على عرفان الغريب من الألفاظ ، وقد يتحدى بهذه الألفاظ الشعراء ذوى الأصول العربية الأقحاح (٢) لأنه ابن رومى وابن فارسية . . . وهو حين يغرب فى اللفظ يغرب أيضاً فى القافية . . . فينظم من قافية الثاء ، والخاء ، والذال ، والطاء وهى حروف ثقال .

وإذا كان ابن الرومى لم يسرف فى المحسنات اللفظية إسراف سلفه القريب منه أبى تمام فإنه كان يقع له فى شعره كثير من حلى الألفاظ . فكان يستعمل الجناس (٣) ، وكان يلجأ بعض الحين إلى المجاورة وهى من الحلى اللفظية كقوله :

مشترك الحظ لا محصله محصــل المجد غير مشتركه
منتهك المال لا ممنعه ممنع العرض غير منتهكه (٤)

---

(١) « الموشح » للمرزبانى ص ٢٦١

(٢) أى الخالصين فى نسبهم العربى .

(٣) الجناس هو اتفاق الكلمتين لفظاً واختلافهما معنى ويجب أن يرجع إليه فى كتب البلاغة

(٤) « الصناعتين » لأبى هلال ص ٤١٥ . ومعنى البيتين أن الممدوح مشترك الحظ مع الناس ولكنه انفرد وحده بتحصيل المجد فلم يشركه فيه أحد ، كما أنه ينتهك أمواله بالعطايا على حين أن عرضه سليم مصون غير منتهك .

وكان فوق هذا يرصع فى أشعاره ، أى يحشو البيت من داخله بالسجع . وقد استجاد أبو هلال ترصيعه فى قوله فى وصف حسناء :

حوراء فى وطف ، قنواء فى ذلف لفاء فى هيف ، عجزاء فى قبب [1]

وهو يستعمل الطباق — وهو الجمع بين المعانى المتضادة المتقابلة كالأبيض والأسود ، والطويل والقصير — وإن كان ولوعه به أقل من غرامه بالجناس . وفى البيتين الآتيين يطابق بين المدح والهجاء ، والمنع والعطاء ، حين يقول فى المدح بلا ثواب :

إذا ما المدح سار بلا ثواب من الممدوح فهو له هجاء
لأن الناس لا يخفى عليهم أمنع كان منه أم عطاء

ولقد سبق شاعرنا ابن الرومى الشاعر أبا العلاء المعرى فى التزام ما لا يلزم فى القافية ؛ وقد تنبه الأمير ابن سنان إلى هذا فقال : وكان على بن العباس الرومى يلتزم هذا كثيراً ، وهو موجود فى شعره [2] . والأمثلة على هذا كثيرة لا يتسع لها المقام هنا . ويؤكد هذا الشغف ما قاله ابن حمزة العلوى بعد هذا بثلاثة قرون من أن ابن الرومى كان من أكثر الناس ولعاً بلزوم ما لا يلزم فى أشعاره [3] .

وقد التزم ابن الرومى فى قصيدته الدالية التى يقول فيها :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولَد

التزم فيها حركة الفتح قبل الدال وهو التزام بشىء لا يلزم ، فقد كان فى مندوحة من أن يضم أو يكسر ما قبل حرف الروى فى قصيدة طويلة مثل هذه تبلغ أربعمائة بيت من الشعر [4] يمدح فيها صاعداً ، ويذكر الموفق وصاحب ثورة الزنج [5] .

---

(١) الحوراء شديدة سواد العين وبياضها ، والوطفاء كثيرة شعر الحاجبين ، والقنواء المرتفعة الأنف ، والذلفاء الدقيقة الأنف . واللفاء المملوءة الفخذين ، والهيفاء الدقيقة الخصر ، وكذلك القباء .

(٢) « سر الفصاحة » ص ١٧٢

(٣) « الطراز » ج ٢ ص ٤٠٢

(٤) لم يذكر من هذه القصيدة فى ديوان ابن الرومى الذى اختاره كامل كيلانى إلا بضعة وخمسون بيتاً

(٥) « اللآلى فى شرح الأمالى » ج ١ ص ٣٢٩

٥ ـ عيوب شعرية

وهل سلم من العيب أدنى الناس أو الأشياء إلى الكمال ؟ إن ابن الرومى شاعر فحل ، مصور ، بارع ، دقيق المعانى ، عميق الفكرة ، بديع التصوير ، ولكن له بعض المعايب فى شعره هى نقص القادرين على التمام . . . وقد اختار بديع الزمان الهمذانى فى مقامته[١] العراقية بيتاً يضرب به المثل فى الثقل وهو قوله :

إذا منَّ لم يمنن بمن يمنه   وقال لنفسى أيها النفس أمهلى[٢]

وفى كثير من قصائد ابن الرومى وشعره مثل هذا البيت الثقيل كما قال بديع الزمان الهمذانى ، أو السخيف كما نقول نحن . ولكن أترى ذلك يسقط شاعرية ابن الرومى وفحولته جملة ؟ ألا يقع للرجل المجود ما ينقص أسباب إجادته ؟ لقد قال « مثقال » الشاعر : قلت لأبى تمام : تقول الشعر الجيد، ثم تقول البيت الردىء ؟ فقال أبو تمام : مثل هذا مثل رجل له عشرة بنين منهم واحد أعمى ، فلا يحب أن يموت[٣] . وكذلك كان أبناء الشعر أو بناته عند ابن الرومى . . . فيها واحد أو أكثر من واحد ردىء ، فلا يحب الشاعر أن يموت هذا الواحد ! بل أكثر من هذا فإن ابن الرومى نفسه لم يمت بمثل هذا الردىء ! وإن كان وضع على مشرحة الزمان فى ميزان النقد الذى لا يحابى ولا يميل . . .

وقد أحس ابن الرومى نفسه بأن فى شعره الجيد والردىء، فاعتذر من ذلك بأن الشجر فيه اللحاء ــ أى القشر ــ والخشب ، والشوك ، والثمر :

قولا لمن عاب شعر مادحه   أما ترى كيف ركب الشجر ؟

ركب فيه اللحاء والخشب اليـ   ـابس والشوك بينه الثمر

وكان أولى بأن يهذب ما يخـ   ـلق رب الأرباب لا البشر !

---

(١) « مقامات بديع الزمان » . طبعة ٣ بيروت ص ١٤٩

(٢) علق الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده على هذا بقوله : « وثقل وقع البيت لأن تكرار المن فى الشطر الأول مع برودة اللفظ فى الشطر الثانى مما يكره سماعه . أو لأنه ذكر المن فيه أربع مرات . وكل من مائتان وثمانون مثقالا . فالذهن يحمل من ثقل البيت ألفاً ومائة واثنين وثلاثين « كذا » مثقالا ، وما هى بقليل » !

(٣) « الموشح » للمرزبانى ص ٣٢١

لقد عابوا على شاعرنا بعض الحشو فى مثل قوله :

وقبلت أفواهاً عذاباً كأنها ينابيع خمر حصبت لؤلؤ البحر

لأن اللؤلؤ لا يكون إلا فى البحر ، فلفظة البحر هنا حشو[١] . وعابوا عليه بعض الإفراط فى المبالغات[٢] مثل قوله مادحاً :

أحاط علماً بكل خافية كأنما الأرض فى يديه كرة

وعابوا عليه كثيراً من الصناعة والمحسنات والتصحيف فى شعره ، وعابوا عليه هذه الإضافات إلى فاعل المصدر ، وهذه الضمائر المتصلة فى مثل قوله :

على دين ثقيل أنت قاضيه يا من يحملنى دينى رجائيه

وقوله :

ومحاسن الأشياء فيك معاً فملالتيك ملالتى بصرى

وقوله :

وعزيز علىّ عضيك باللو م ولكن أصبت صدرى بداء

بدلا من قوله : رجائى إياك ، وملالتى إياك ، وعضى إياك .

وعابوا عليه إكثاره من ذكر الألفاظ الفارسية لأنها لاتستحسن فى الشعر وما إليه من الكلام الفنى[٣] ، من مثل آيين بمعنى عادات ، وشير بمعنى أسد ، وكوش بمعنى أذن ، وزرياب بمعنى ماء الذهب . ولكنهم نسوا اعتذاره هو من العيوب فى شعره ، ونسوا البيئة والأصول التى جرت فى دمائه ، والبواعث التى دفعته وكيفته فى طريقه المرسوم . . .

٦ ـ أغراض من الشعر

ا ـ المدح :

لقد مدح ابن الرومى ألواناً من الناس فى عصره ، فمدح الوزراء والكتاب

---

(١) « الصناعتين » لأبى هلال العسكرى ص ٤٥١

(٢) « زهر الآداب » ج ٢ ص ٩٧٤

(٣) « أمراء الشعر العربى » للمقدسى ص ٢٦٠

بالهجاء ، على أن هذا الإنذار قد لا يأتى أولا كما هى طبائع « الإنذار » ، وإنما يأتى بعد تبكيت وتقريع هو أدنى إلى الهجاء . . . ويؤيد ذلك موقفه من صديقه سوار بن أبى شراعة[١] ، فهو يقول له من أبيات :

وَصَفَ المكارم وهو فيها زاهد ورأى الجميل وفيه عنه تغاضى

ثم يقول له بعد عاصفة من التبكيت :

فاكفف سهامك عن أخيك فإنما آسفته فرماك بالمعراض[٢]
فاعذر أخاك على الوعيد فإنما أنذرت قبل الرمى بالأنباض[٣]

وهو متربص مستوفز الحس لكل من يتعرض له فيقول :

عجبت لمن تمرس بى اغتراراً أتاح لنفسه سهماً مصيبـاً
سأرهق من تعرض لى صَعوداً[٤] وأكوى من مياسمى[٥] الجنوبا

إن النفس لتعاف من ذكر مفاحشات ابن الرومى فى هجائه ، على أن الشاعر الهجاء الصناع قد يوجع بالهجاء ولكنه لا يفحش . كذلك الشاعر الذي قال هاجياً :

إن يفجروا أو يغدروا أو يبخلوا لم يحفلوا ...
وغدوا عليك مرجلين كأنهم لم يفعلوا ... ...

أليس هذا أبلغ من ذكر العورات والقول الفاحش المقذع[٦] ؟

جـ ــ الرثاء :

إذا كان ابن الرومى من شعراء الرثاء فإن مكانه فى رثاء الأبناء فى الأدب العربى مما لا يجوز إغفاله . ولا نزال نذكر مرثية أبى ذؤيب الهذلى لأبنائه

---

(١) زهر الآداب جـ ٢ ص ٦٤١
(٢) المعراض: هو السهم يصيب بعرضه لا بحده
(٣) الأنباض: هو تحريك وتر القوس لكى ترن فى الرمى
(٤) سأرهقه صعوداً أى سأغشيه عقبة شاقة المصعد . وهو تعبير من القرآن فى سورة « المدثر »
(٥) المياسم جمع ميسم وهو المكواة
(٦) « ديوان المعانى » لأبى هلال العسكرى ص ١٨٢

السبعة الذين ماتوا إلا طفلا ، فقال من قصيدة رائعة :

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم　　وإذا المنية أقبلت لا تدفع
وإذا المنية أنشبت أظفارهـــا　　ألفيت كل تميمة لا تنفع(١)

ولا نزال نذكر من الشعراء الذين رثوا أبناءهم : القرشي ، والخنساء ، وعبد الله بن الأهتم ، وأبا العتاهية ، وأبا الخطار ، وجريراً ، وابن عبد ربه ، والتهامي(٢) وغيرهم ، إلا أن ابن الرومى أجاد فى مرثيته لابنه الأوسط محمد ، وهى تلك الدالية المشهورة التى سنعرض طرفاً منها فى الفصل الرابع .

ولما أرصد الدهر سهامه لابن الرومى فى أهله وأسرته رأيناه يرثى الراحلين منهم مراثى مؤثرة ، فرثى ولديه هبة الله وابنه الثالث ، ورثى أمه وخالته وزوجته وأخاه . ويظهر أن الأحزان لم تعد تشغله عن رزئه فى نفسه هو . . فقد كانت فجيعته فى حياته هو أشد وأنكى من فجيعته فى موت أهله وبنيه . ويقول فى ذلك :

رأيت الدهر يجرح ثم يأسو　　يوسى أو يعوض أو ينسى
أبت نفسى الهلاع لرزء شىء　　كفى شجواً لنفسى رزءُ نفسى

وقد يجد أغلبنا راحة وتأسياً فى أحزان غيره وبلواهم فتهون عليه بلواه . . . ولكن ابن الرومى لا يرى ذلك ، فهل يستطيع مرزوء أن يحمل عنا بعض أرزائنا ؟ اسمعه يقول :

وما راحة المرزوء فى رزء غيره　　أيحمل عنهُ بعضَ ما يتحملُ ؟
كلا حاملى عبءَ الرزية مثقل　　وليس معينا مثقلَ الظهر مثقلُ(٤)

د - الوصف

يعين ابن الرومى على قدرة الوصاف فيه عين المصور وريشته ، فكأنه كله

---

(١) « العقد الفريد » جـ ٣ ص ٢٥٣
(٢) انظر قصيدة التهامى فى رثاء ولده فى « معراج البيان » ص ٨٧
(٣) « زهر الآداب » جـ ٢ ص ٩٢٩ . والهلاع هو أشد الجزع ، والشجو الحزن والأسى
(٤) « زهر الآداب » ٩٢٩ والمعنى أن المثقل بمصابه لا يستطيع أن يحمل عبء مثقل آخر

عيون تنظر إلى الحياة من كل زاوية ، كما كان كله شهوات حين يأكل وحين يشرب وحين يجلس إلى مائدة فيصورها بما فوقها من أطايب الطعام . إلا أن طبيعة ابن الرومى فى التصوير والوصف قد غلبتها مداخل الصناعة ، أو غشيتها اعتبارات الهوى الجامح حيناً ، وخطرات الوساوس أحياناً . . . وإلا ففيم تفضيله النرجس على الورد ، وتشويهه لصورة الورد بما يجعلنا نشك فى صدقه ؟ إن الأصالة والطبع قد يبدوان فى أوصاف ابن الرومى وصوره وتصويره ، إلا أن الصناعة وإظهار المقدرة قد يبدوان كذلك . ولكنه على كل حال – بين الطبع والصنعة – قد ترك لنا أوصافاً تجعله من كبار الوصاف . ولقد وصف شاعرنا الرياض والأزهار من مثل النيلوفر ، والنرجس ، والشقائق ، والخيرى[1] ، ووصف الفاكهة من مثل الموزَ ، والبلح ، والعنب ، والتوت ، والتفاح ، والأترج[2] ووصف الطعام والشراب من مثل الرقاق والزلابية والدجاج المحمر والسمك المقلى واللوزينج والخمور . ووصف ألواناً من الخلق مثل القيان والثقلاء والحدب والعور ، مما سيجىء نماذج منه فى باب المنتخبات . وتأبى طبيعة المصور فيه إلا أن ترسم لك اللوحة كاملة لكل صورة ، فلا تحس نقصاً هنا فى الظلال ، أو زيادة هناك فى الأضواء . . . وسنلتقى مع القارئ الكريم فى باب المنتخبات بوصفه لليلة بات فيها فى « خان » وكان الجو عاصفاً والمطر واكفاً :

يؤرقنى سقف كأنى تحتـــه ... من الوكف تحت المدجنات الهواضب[3]

كما سنلتقى معه فى وصفه لأهوال الماء فى بحر دجلة ، ووصفه لمجتمع بغدادى من الطبقة العالية المعربدة الصاخبة ، ووصفه لشهر أيلول « سبتمبر » فى العراق والريح فيه ساجية ، والمضاجع باردة ، والقمر يسرى بصفحته الساجية .

---

(١) انظر « نهاية الأرب » ج ١١ ، و « التشبيهات » لابن أبى عون . والنيلوفر: نبات ينمو على سطوح المياه وله زهر جميل ، والشقائق: هى شقائق النعمان وهو زهر مرقش بنقط سود . والخيرى: هو زهر المنثور

(٢) هو حامض من جنس الليمون الحلو

(٣) الوكف: هو انصباب المطر ، والمدجنات: هى السحب التى يدوم مطرها ، والهواضب: السحب الكثيرة المطر

٥ – أغراض أخرى :

تنتشر أبيات من الغزل هنا وهناك فى ديوان ابن الرومى ، إلا أنها فى مجموعها – ومتفرقها – لا تقوم بأن نعده من شعراء الغزل . فقد يجعل الغزل والنسيب فى قصائده تخلصاً إلى المدح أو إلى الغرض الذى يريده ، وقد يجعله مقدمة للهجاء كما يقول هو :

ألم تر أننى قبل الأهاجى   أقدم فى أوائلها النسيبا ؟
لتخرق فى المسامع ثم يتلو   هجائى محرقاً يكوى القلوبا [١]

وغزل ابن الرومى تغلب عليه الشهوة والحسية أكثر مما تغلب عليه العاطفة . وأية حسية أظهر وأعلن من قوله فى « شاجى » جارية عبيد الله بن طاهر :

ذات جيد يزهى على كل عقد   وجبين يزهى على كل تاج
يتلقاك فى الغلائل منها   وجه شمس وجسم دمية عاج
أسبلت من ذراه جعداً [٢] أثيثاً   جائزاً حد متنها الرجراج
جارياً فوق متنها جرية الما   ء وإن كان حالك الأمواج

إلا أن له مع ذلك فى وصف لذاذات العناق ، ومرارة الفراق ، وحرارة الأشواق ، وسحر الحديث ما يعد فيه سابقاً . أو ليس من بدائعه فى صفة حديث الحبيبة قوله :

وحديثها السحر الحلال لوَ انه   لم يجن قتل المسلم المتحرز [٣]
إن طال لم يملل ، وإن هى أوجزت   ود المحدث أنها لم توجز

ثم أليس من صفته لطيب أنفاس الحبائب – فلا تعتريها آفة بشرية من النوم – ما يفوق فيه الموهين من شعراء الغرام [٤] ؟

* * *

ولابن الرومى من شعر الحنين إلى الأوطان ما يعد به أول من علل شوق

---

(١) « ديوان ابن الرومى » شرح الشيخ شريف ص ٥٤٩
(٢) الجعد : هو الشعر غير المسترسل ، والأثيث هو الملتف الكثير ، والمتن هو الظهر
(٣) المتحرز : هو المتحفظ المتصون
(٤) « التشبيهات » ص ١٠٤ ، و « ديوان المعانى » ص ٢٣٩

الناس إلى ديارهم[١] . فقد كان الناس قبله يحنون إلى الوطن ، أما هو فقد ذكر علة ذلك الحنين بقوله المبتكر :

وحبب أوطان الرجال إليهمو مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمو عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

كما أن له فى الشيب والشباب والبكاء على عهود الصبا النواضر ما يقل نظيره فى الأدب العربى ، وما لا يدانيه فيه الهذلى ، وأبو العتاهية ، وأبو تمام ، ولا معاصره البحترى ، ولا ابن المعتز ، ولا مسلم ابن الوليد ، ولا المتنبى ، ولا الشريف المرتضى وغيرهم ممن بكوا أما ليد الشباب [٢].

أما الحكمة والمثل فى شعر ابن الرومى . فلم يكن صاحبنا متخلفاً فيهما ، ولا مقصراً دونهما . إلا أن المثل الشعري يسير حين يبلغ منه الإيجاز مبلغ التركيز . فإذا لجأ إلى المنطق والتحليل والتطويل لم ينفع لسيرورة ، ولم يصلح لاستشهاد . ومن هنا سارت أمثال المتنبي وروتها الألسنة فى كل أرض . وقل أن يتفق المثل الشعرى لشعراء الإطالة وتعمق المعانى وإدارتها على كل وجه كابن الرومى . ولكنه ميسور لشعراء اللمحة الخاطفة والخطرة الجارية . . . وقد يكون المتنبي أفاد كثيراً من معرفته لأقوال أرسطو فى الحكمة[٣] . على أن ابن الرومى له من الحكم ما قد يعد به نسيج وحده . ومن حكمه السائرة قوله :

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

وكثيراً ما يعقب شاعرنا الحكمة أو المثل بالتذييل لها أو التعقيب عليها ، فتقع فى أكثر من بيت واحد — كما سنرى فى النماذج — على حين أن أمثال شاعر كالمتنبي يقع الواحد منها فى بيت واحد ولا يزيد عليه .

* * *

بقى العتاب والشكوى عند ابن الرومى . فكثيراً ما نلقاه فى شعره عاتباً أو شاكياً ، كما رأيناه قبل ذلك مادحاً أو هاجياً . وليست الشكوى غريبة من

---

(١) « زهر الآداب » ص ٦٨٢
(٢) « الشهاب فى الشيب والشباب » للشريف المرتضى .
(٣) « الرسالة الحاتمية » لابن المظفر . طبع بيروت سنة ١٩٣١

رجل كان ساخطاً على الأقدار ، غاضباً على ظلم الحظوظ حين تعطى من لا يستحق العطاء ، وتحرم من هو جدير بالإيفاء . . . وما أشد صرخته وهو يقول فى معرض المترفين الواجدين المكثرين :

لم أكن دون مالكى هذه الأم   لاك لو أنصف الزمان المحابى

وما أمر شكواه إلى عبيد الله بن سليمان من امرأة غصبت بعض عقاره ، فقال :

تهضّمنى أنثى وتغصب جهرة   عقارى ؟ وفى هاتيك أعجب معجب

فهو لم يكفه ظلم الزمان ، حتى تغلبه وتهضمه بعض النساء .

أما العتاب فهو ثمرة الحس المرهف ، والعصب المدنف ، وضيق الصدر بما لا تطاق معه صغائر الناس ، وقلة الحيلة فيما تتسع له صدور المدارين . فإذا أبطأ إنسان فى ثوابه عاتبه ، وإذا ماطله على بن يحيى المنجم عاتبه ، وإذا لمح من بنى وهب الوزراء أدنى تقصير — أو قصور — عاتبهم وقال لهم :

تخذتكمُ درعاً حصيناً لتدفعوا   نبال العدا عنى فكنتم نصالها

وإذا نام أبو القاسم التوزى عن حاجته يوماً رماه بالهمزية الطويلة يعاتبه فيها أشد عتاب .

٧ — آخذ ومأخوذ منه . . .

يسمون الأخذ سرقة شعرية . . . ولكنا نجل شاعراً ذا مكانة وخطر كابن الرومى أن يكون سارقاً . . وإن كان هو نفسه اتهم البحترى معاصره بأنه :

عبدٌ يغير على الموتى فيسلبهم   حرّ الكلام بجيش غير ذى لجب[١]

ولكن شاعرنا على كل حال كان موضع نقد النقاد حين أخذ معانى غيره من الشعراء ، فوقف له هؤلاء النقاد يتتبعون المعانى ويردونها إلى أصولها وقائليها . فقول ابن الرومى :

فامدد إلى يداً تعود بطنها   بذل النـــوال وظهرها التقبيلا

مأخوذ من قول إبراهيم بن العباس للفضل بن سهل :

لفضل بن سهل يد   تقاصر عنها المثل

---

(١) اللجب : هو الصياح والجلبة

فبــاطنهــا للنــدى وظاهــرها للقبــل [١]

ولقد عد الحصرى القيروانى وأبو هلال العسكرى والقاضى الجرجانى وابن الأثير وغيرهم كثيراً من مآخذ ابن الرومى من غيره من الشعراء[٢] . . إلا أن شاعرنا كما كان آخذاً فهو مأخوذ منه ، وكان معدواً عليه كما كان عادياً ! !

فالمتنبى – على جلال قدره ومكانه الشامخ فى الشعر العربى – يعجبه قول ابن الرومى فى الرياض :

فهى تثــنى على السماء ثنــاء طيب النشر شائعــاً فى البــلاد

فيقول آخذاً منه :

وذكى رائحــة الرياض كلامها تبغى الثناء على الحيا[٣] فتفوح

وابن الرومى يقول : (أخشى عليك اتقاد الفكر لا حذرا)

فيعجب المتنبى بهذا المعنى فيأخذه – بلا استئذان – ويقول :

أشفق عنــد اتقاد فــكرته أخاف منهــا عليــه يشتعل

ولا يعيب المتنبى أنه أعجب بمعنى لابن الرومى فأخذه ، كما لا يعيب ابن الرومى أنه أعجبه معنى أبى تمام :

وإذا المجد كان عونى على المر ء تقاضيته بــترك التقاضى

فاسترقه أحسن استراق [٤] قائلا :

ووكلت مجدك فى اقتضائك حاجتى وكفى به متقــاضياً ووكيــلا

فإن المعانى شائعة، إلا ما كان منها معروفاً بعدم السبق إليه والابتكار فيه .

٨ ـ أبيات حائرة النسب

هناك فى شعر ابن الرومى أبيات حائرة بين النسب إليه والنسبة إلى غيره . . . فأبياته الضادية التصويرية الرائعة للغمام وقوس قزح ، التى يقول فيها :

---

(١) « كتاب الصناعتين » ص ٢٢٤

(٢) انظر « زهر الآداب » و « الصناعتين » و « ديوان المعانى » لأبى هلال ، « والوساطة » للجرجانى ، و « المثل السائر » لابن الأثير .

(٣) الحيا : هو المطر .

(٤) « الطراز » للشريف ابن حمزة العلوى ص ١٩٤

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفاً على الجو دكناً والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحـــاب بأصفـــر على أحمر فى أخضر وسط مبيض
كأذيال خـــود أقبلت فى غلائـــل مصبغة ، والبعض أقصر من بعض

هذه الأبيات ينسبها الثعالبى لسيف الدولة بن حمدان ، ثم ينسبها مرة أخرى لعضد الدولة[١] ، وينسبها النويرى لسيف الدولة[٢] . أما العباسى فينسبها لابن الرومى ، ثم يقول إن بعضهم ينسبها لسيف الدولة، منهم صاحب اليتيمة[٣] .

وأبيات القطائف التى فيها :

قطائف قــد حشيت باللـــوز والسكر الماذى[٤] حشـــو الموز

هى فى ديوان ابن الرومى له ، ولكنها عند أبى إسحاق الحصرى منسوبة لعلى ابن يحيى المنجم[٥] .

ولابن الرومى فى طيب أنفاس الحبيبة بيتان فى ديوانه، وفى الصناعتين ، وفى ديوان المعانى ، وفى حماسة ابن الشجرى وهما :

وما تعتريها آفـــة بشريـــة من النوم إلا أنهـــا تتخثر
كذلك أنفاس الرياح بسحرة تطيب وأنفاس الورى تتغـــير

إلا أن الوزير أبا عبيد البكرى ينسبهما — وهماً منه — إلى البحترى معاصر ابن الرومى[٦] .

وهناك البيتان التاليان :

لئن أخطـــأت فى مـــدحـ ـك ما أخطـــأت فى منعى
لقد أحللـــت حاجـــاتى بـــواد غير ذى زرع

فابن حجة الحموى ينسبهما إلى ابن الرومى[٧] ، والعباسى يقول إنهما ينسبان

---

(١) « يتيمة الدهر » ج ١ ص ٢٤
(٢) « نهاية الأرب » ج ١ ص ٩٤
(٣) « معاهد التنصيص » ج ١ ص ١٠٩
(٤) الماذى : هو العسل الأبيض
(٥) « جمع الجواهر » ص ٢٨٧
(٦) « سمط اللآلى » ج ١ ص ٥٢٤
(٧) « خزانة الأدب » للحموى ص ٥٤٠ طبع بولاق

لابن الرومى ، ولكنه يذكر أنه رآهما فى الأغانى لإسماعيل القراطيسى [١] . وهما فى الأغانى للقراطيسى [٢] فى ترجمته، ولم يردا فى ديوان ابن الرومى على الإطلاق . وهما عند ابن قتيبة [٣] للقراطيسى أيضاً . وابن قتيبة من أقدم الرواة الثقات هنا .

وهناك أبيات فى المشيب أولها :

طربت إلى المراة [٤] فـــروعتـــنى طوالـــع شيبتـــين ألمتا بى

يرويها الحصرى لابن الرومى، ثم يقول : وقد رأيت من ينسبها إلى كشاجم [٥].

وهناك أبيات أولها :

بقيت مالك مـــيراثاً لـــوارثه فليت شعرى ما أبقى لك المـــال ؟

وينسبها أسامة بن منقذ لابن الرومى ، مع أنها فى العقد الفريد منسوبة لأبى العتاهية [٦] لأنها فى ديوانه ، ولكن أسامة وهم فى نسبتها لابن الرومى .

٩ ــ ابن الرومى الناثر

عرفنا ابن الرومى شاعراً ذللت له شياطين الشعر ــ أو آلهته ــ فأمدوه بأبكار المعانى وغرائب الأخيلة وبدائع الصور . فأين ابن الرومى من الكلام المنثور الذى لا تحدده قافية ، ولا تقيده أوزان ؟ إنه يخاطب الوزير القاسم بن عبيد الله متحدثاً عن نفسه :

فمتى ما أردت صاحب فحص كنت ممـــن يشارك الحكماء
ومتى ما خطبت منى خطيبـــاً جل خطبى ففاق بى الخطباء
ومتى حاول الرســـائل رسلى بلغتنى بلاغتى البلغـــاء [٧]

---

(١) « معاهد التنصيص » طبع بولاق » ص ٥٦٤
(٢) « الأغانى » ج ٢٠ ص ٨٨
(٣) « عيون الأخبار » المجلد ٣ ص ١٤٣
(٤) المراة : المرآة وقد حذفت المدة لوزن الشعر
(٥) « زهر الآداب » ج ١ ص ٢٥٨
(٦) « لباب الآداب » ص ١٢٢

ويخاطب بنى وهب ومنهم الوزير القاسم قائلا :

ألم تجدونى آل وهب لمدحكم بشعرى ونثرى أخطلا ثم جاحظاً[١]؟

فهنا إشارتان إلى ترسله فى الكتابة وإلى نثره الجاحظى . وفى كتب المختارات والأدب نثار من نثر ابن الرومى لا يعدو أن يكون بضع رسائل موجزة فى الاعتذار ، أو السؤال ، عن مريض ، أو العتاب لنسيانه بالهدية ، أو تفضيل النرجس على الورد ، أو التهنئة بالعيد[٢] ، أو الوداد[٣] . والرسالتان الأخيرتان وقعتا لنا أخيراً فيضافان إلى ما كشفه العقاد قبل ذلك من رسائل . وموعدنا بها جميعاً الفصل الآتى . . .

١٠ – معارضات لابن الرومى

لقد ظفرت بعض القصائد عند بعض الشعراء بمعارضات لها من الوزن والقافية . وقد تتفق المعارضة مع القصيدة الأولى فى الغرض وقد تختلف عنها . فالشاعر شوقى يعارض البحترى فى السينية ، ويعارض ابن زيدون فى النونية ، ويعارض أبا تمام فى البائية التى أولها :

السيف أصدق إنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

ويعارض البوصيرى فى البردة التى نظمها مدحاً فى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فهل وجد ابن الرومى من يعارضه فى إحدى قصائده من أهل جيلنا هذا ؟

إن لابن الرومى نونية فى مدح أبى الصقر الشيبانى أولها :

أجنينك الورد أغصان وكثبان فيهن نوعان : تفاح ورمان

وهى القصيدة التى أسماها عبيد الله بن طاهر « دار البطيخ » لكثرة ما فيها من أسماء الفواكه[٤] . ودار البطيخ هى الاصطلاح العباسى لما نسميه اليوم سوق الفاكهة . ولقد عارض العقاد والمازنى وعلى شوقى هذه النونية . فكانت

---

(١) « ابن الرومى » ص ١٠٢

(٢) « معراج البيان » ص ١٤٥

(٣) « زهر الآداب » ج ٢ ص ١٠٨٥

(٤) « الموشح » للمرزبانى ص ٣٥٧

معارضة العقاد فى ١٦٥ بيتاً بعنوان « الحب الأول[١] » ، ومعارضة المازنى فى ٧١ بيتاً بعنوان « مناجاة الهاجر[٢] » .

وقد تأثر المازنى بابن الرومى فى إضافته المصدر إلى فاعله مع ذكر المفعول به ضميراً متصلا بدلا من الضمير المنفصل ، فيقول مثلا :

فما أحوك على الأيام قافيــة إلا وفيها على حبيه عنــوان
كأن ذكريه آيات أرتلهـــا كما يرتل إنجيــل وفرقان

بدلا من حبى إياه وذكرى إياه . وتلك طريقة ابن الرومى ...

أما العقاد فيعرض فى مقطع من القصيدة بذوى البطنة والنهم ممن تحتوى مآدبهم مشوي الطيور . . . ولعله كان يستحضر فى ذهنه ابن الرومى وهو يصف أكلة هنية من لحم فروج ولحم فرخ قد عولجت باللوز والجبن والزيتون والنعنع[٣] . . . فيقول العقاد :

ما ضر قانصها[٤] أن لا يكون لهــا غير الفلا وحجاز الأفق قضبان
أين الحمائم تشدو فى أرائــكها من الحمائم يشــويهن مبطان ؟
أو الطيور على السفــود ناضجــة من الطيور تهاداهــن أفنــان ؟
لو أطلقوها كما شاءت لــكان لهم منها قيان كما شاءوا وندمان . . .

وقد يكون عبيد الله بن طاهر تجنى على ابن الرومى وعلى قصيدته الطويلة هذه حين أسماها دار البطيخ ! فهى فى الحق معرض أنيق للحب والمحبين ، ولهذا أسماها كامل كيلانى « جنة المحبين » ، وجعل العقاد والمازنى معارضتيهما بعنوان الحب الأول ، ومناجاة الهاجر . ونحن نوصى بقراءة القصائد الثلاث فى مظانها ، فإن القارئ سيجد فيهن جنات وارفات الظلال . . .

---

(١) « ديوان العقاد » ج ١ ص ٣٧

(٢) « ديوان المازنى » ص ١٢٥

(٣) « ديوان ابن الرومى » شرح كامل كيلانى ص ٤١٨

(٤) الضمير يعود على الطيور

الفصل الرابع

منتخبات من آثار ابن الرومى

١ – ابن الرومى الشاعر

ا – المدح :

أخو المعالى

قال ابن الرومى يمدح على بن يحي المنجم ، وكان أديباً شاعراً متكلماً من فضلاء المعتزلة ، ونادم المتوكل على الله العباسى وعدة خلفاء بعده . وبيت المنجم من بيوت العلم فى العراق . وقد افتتح الشاعر المدحة ببضعة وعشرين بيتاً فى الشيب والشباب ، ثم تخلص إلى مدح ممدوحه قائلا :

ظلمتنى الخطوبُ حتى كأنِّى ليس بينى و بينها من حَسِيب (١)

سَلَبتْنِى سَوادَ رأسى ولـكنْ عوّضتنى رِياشَ كلِّ سليب (٢)

عوّضتْنى أخا المعــالى علياً عِوَضٌ فيه سَلوةٌ للحريب (٣)

يستغيث اللهيف منــه بمدعُـوٍّ لدى كل كُربةٍ مستجيب

أريحىٌّ (٤) له إذا جمدَ الـكزّ بنــانٌ تذوبُ للمستذيب

---

(١) فى الديوان شرح الشيخ شريف سليم أن الممدوح هو يحي بن على المنجم وفى القصيدة نفسها ما يدل على أن الممدوح هو على بن المنجم لا ولده يحي . والحسيب ذو الحسب ، أى ليس فى الأيام ذو جاه يرد عنى غوائلها .

(٢) الرياش أفخر الثياب ، والسليب المسلوب والمعنى أن الممدوح هو عوض لكل مسلوب .

(٣) الحريب المسلوب .

(٤) الأريحى الذى يرتاح للعطاء ، والكز البخيل ، والبنان الأصابع والمقصود الكف الكريمة .

يتلقَّى المدفَّعين عن الأبـ ... واب منه بالبِشْرِ والترحيبِ
لو أبَى الرّاغبونَ يوماً نداهُ ... لَدعَاهمْ إليه بالترهيبِ
رُبّ أكرومةٍ له لم تخَلْها ... قبلَه في الطباع والتركيبِ
غرَّبَتْهُ الخلائقُ الزُّهْرُ (١) في النا ... سِ وما أوحَشْته بالتغريب
مَنْ رآه رأى شواهدَ تُغْني ... عن سَماع الثّناء والتجريبِ
فيه من وجهه دليلٌ عليه ... مُخْبِرٌ عن ضَريبة (٢) ذاتِ طيبِ
حَكَمَ اللهُ بالعلا لعليٍّ ... وبحق النجيب وابنِ النجيبِ
لَوْذعيّ (٣) له فؤادٌ ذكيٌّ ... ماله في ذكائه مِن ضريب
ألمعيّ (٤) يرى بأول ظَنٍّ ... آخرَ الأمرِ مِن وراء المغيبِ
لا يُروِّى ، ولا يُقلِّبُ كفًّا ... وأكفُّ الرِّجالِ في تقليبِ (٥)
لَيِّنٌ عِطْفُهُ فإن ريمَ منه ... مَكْسر العُود كان جِدّ صَليبِ (٦)
مَفْزَعٌ لِلرُّعاة مَرْعًى خصيبٌ ... لرعايا همو وَفَوْق الخصيبِ
في حجاهُ وفي نداه أمَانا ... نٌ من الخوف والزَّمانِ الجديبِ (٧)

---

(١) أي أن الممدوح كالغريب بين الناس بأخلاقه الزاهرة ولكنها غربة لا توحش .

(٢) الضريبة الطبيعة .

(٣) اللوذعي الذكي الخفيف . ومعنى البيت أنه ليس له مثيل في ذكائه .

(٤) الألمعي الذكي المتوقد الذكاء ، فهو يرى أعقاب الأمور من وراء الغيب لشدة ذكائه وبعد نظره .

(٥) أي أن الممدوح تسعفه بديهته فلا يحتاج إلى تأمل وانتظار ، ولا يقلب كفيه ندماً وحسرة على الأمور ، لأن أعقابها دائماً تجيء في مصلحته . في حين يقلب الرجال أكفهم .

(٦) يهتز الممدوح ليناً في عطفه ، فإذا أراده إنسان بكسر عوده كان صليب المكسر .

(٧) في عقله وكرمه مأمن من الخوف ومن جدب الزمان .

أَحْسَنَتْ وَصْفَهُ مساعيهِ حتى أَفْحمت كلَّ شاعرٍ وخطيبِ [١]

قد بَلونا خِـلاله فحمِدْنا غيْبَها حَمْدَ ذائقٍ مُستطيبِ [٢]

يَمَّمتْهُ بنـا المطايا فأفضتْ من فَضاءٍ إلى فَضاءٍ رحيبِ

بأبي أنتَ من جليل مَهيبٍ مَطْلَبُ العُرف منه غيرُ مَهيبِ

طَنَّبَ المجدَ بالمـكارم ، والبيـ تُ بنَصْبِ العِماد والتطنيبِ [٣]

أعْجزَ الطالبيك شأوٌ بَعيدٌ لكَ أدركْتَهُ بعُرفٍ قريبِ [٤]

بدر بني بدر

وهنا يمدح ابن الرومي كريماً أديباً معطاء هو أبو عبد الله بن أبي العباس بن بدر . والشاعر هنا يجانس بين يوم بدر المشهور الذي أعز الله به الإسلام في أول أمره ، وبين اسم الممدوح :

بيوم بَدْرٍ [٥] أعزَّ الدِّينَ ناصرُهُ وبابن بَدْرٍ أعزَّ الظَّرفَ والأدبا

يَمّمتُ بدرَ بني بَدْرٍ فما انتسَبَت ألفاظه لِيَ ، لـكنْ وجهُهُ انتسَبا

لاقيتُه وأنا المملوء مِن غَضبٍ عَلَى الزمان فسرَّى عنِّي الغضبا

---

(١) إن مساعيه الحميدة هي أحسن واصف له ، ناطق عن سجاياه . حتى ليصغر أمامها شعر الشعراء وبلاغة الخطباء .

(٢) اختبرنا صفاته فحمدنا ما غاب منها كما حمدنا ما نعرفه حمد متذوق لها متمتع بها .

(٣) طنب البيت أي أقام الأطناب التي يشد بها . والممدوح شد بيته بالمكارم . وكل بيت لابد له من عمد وأطناب . كما قال الشاعر الجاهلي :

واليت لا يبتنى إلا اه عمـد ولا عمـاد إذا لم ترس أوتاد

(٤) إن مداك البعيد في الكرم قد أعجز الذين يريدون أن يبلغوك ، ولكنك أدركته بمعروفك القريب .

(٥) أعز الله الإسلام بيوم بدر ، ولكنه أعز بابن بدر — الممدوح — الظرف والأدب .

فلو حَلَفتُ لما كَذِّبتُ حينئذٍ ... أنى هناك لقيتُ العُجْمَ والعرَبا[١]

أجْدى فأحسنَ فى الجدْوى وأتبعَنى ... حمدًا، وأردَفنى شُكراً ولا عَجبا[٢]

اللهُ يكلَؤهُ، والله يؤنسه ... فإنه بمعاليه قَد اغتربا[٣]

دعاء

وهنا نرى ابن الرومى يدعو لممدوحه الذى أحياه بالمعروف فيقول :

إذا خاب داعٍ أو تناهى دعاؤه ... فإنى داعٍ والإلهُ مُجيبُ

دُعاءامرئٍ أحييتَ بالعُرف[٤] نفسَه ... وذاكَ دُعاء لا يكاد يَخيبُ

أدام لكَ اللهُ المكارمَ والعُلا ... فإنهما شيء إليك حَبيبُ

وأبقاك للمُدَّاح يُلقُون مَدحهم ... إليك على عِلاَّتهم وتُثيبُ[٥]

ففى كل دارٍ فرحةٌ بَعْد تَرحة ... وفى كل نادٍ شاعرٌ وخطيبُ

يقولون بالفضل الذى أنتَ أهلُه ... وكلُّهمُ فيما يقُول مُصيبُ

أعاذكَ أُنسُ المَجْدِ من كلِّ وحشةٍ ... فإنك فى هذا الأنام غريبُ[٦]

---

(١) لقد اجتمعت فى الممدوح أكرم خلال العرب والعجم ، ولو حلفت بذلك لم أكن كاذباً .

(٢) لقد أعطى فأحسن فى العطية .

(٣) الله يرعى الممدوح ، والله يؤنسه فى وحشته ، فإنه بكرمه وعلاه كالغريب بين الناس .
وقد سبق هذا المعنى لشاعرنا فى قوله :

غربته الخلائق الزهر فى النا ... س وما أوحشته بالتغريب

(٤) العرف هو المعروف .

(٥) حفظك الله لمادحيك وهم يمدحون على اختلاف أحوالهم من الإجادة والتقصير ، وأنت تجزيهم .

(٦) إن ائتناسك بالمجد نجاك من أن تكون فى وحشة بعلاك لأنك غريب فى هذا العالم بمكارمك . وقد سبق هذا المعنى .

وَثَابَ إليكَ الدهرُ من كلِّ سيئٍ ... وجاءكَ يَسْترضيكَ وهو مُنيبُ [(١)]

ولا زال للأعداء فى كل حالةٍ ... وللمال يومٌ من يَديكَ عَصيبُ [(٢)]

المصلحون

لقد كان آل طاهر من السادة القواد الذين أوى ابن الرومى إلى ظلهم ، وهم ينسبون إلى الفرس ، وقد خدموا الدولة العباسية فى عهد المأمون حيث أبلى طاهر بن الحسين فى خدمته . وهنا يمدح ابن الرومى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

كلتا يديكَ يمين لا شِمالَ لهـا ... مخلوقتـان لأمجاد وإنجادِ

تُعطى الجزيل بلا وعْدٍ تقدّمه ... ولا تُعاقبُ إلا بعد إيعـادِ [(٣)]

تبنى المـكارم مُرْساةً قواعدها ... على مكارمِ آباء وأجدادِ

يا آل طاهرٍ الأعْلَيْن مرتبـةً ... لا زلتمُ رغم أعداء وحُسَّادِ

أمسى مُجاوركم يأوى إلى جبلٍ ... صعب المراقى ويرعى جانبى وادى [(٤)]

من عاث فى الأرض إفساداً فإنكمُ ... بَدَّلتمُ الأرض إصلاحاً بإفسادِ [(٥)]

يَفديكم الناس إذ تَفْدون أنفُسهم ... منكم بأفضـلِ أرواح وأجسادِ

---

(١) جاءك الدهر تائباً من ذنوبه إليك أو مستغفراً من إساءاته .

(٢) إن الأعداء يلقون من يديك القتل والهلاك . والمال يلاقى منهما الإنفاق والإتلاف فى الجود ، فأدام الله على أعدائك وعلى أموالك الهلاك والإنفاق .

(٣) يعطى الممدوح أجزل العطاء بلا وعد سابق . ولكنه لا يعاقب إلا بعد إنذار .

(٤) إن المجاور لكم المحتمى بكم يأوى إلى جبل منيع عاصم ، ولكنه فى الوقت نفسه يأوى إلى واد خصب ممرع .

(٥) جرى ابن الرومى هنا على الأفصح من إدخال الباء مع الفعل « بدل » على الشيء المتروك كقوله تعالى : (وبدلناهم بجنتيهم جنتين) .

هـذا ثنائى وهاتيكم مناقبكمْ يا أعْيُنَ الناسِ ما أبعدتُ إشهادى (١)
فابقَوا بقـاءَ مساعيكم فقـد بقيت منهن أطواد (٢) مَجْدٍ فوق أطوادِ

مستعبد الأحرار

وهنا يمدح أبا العباس بن ثوابة ، بل يمدح آل ثوابة جميعاً ، كعادته فى مدح الفرد مجتمعاً فى آله ومنتسباً إلى بيته :

بنى ثوابة لا زالت منازلـكمْ تُلْفَى مثابةَ مُدَّاحٍ وأشعارِ (٣)
تستعبدون بهـا الأحرارَ دهرَكمُ فـكم عبيدٍ لـكم فى الناس أحرارِ
لـكم علينا امتنان لا امتنانَ به وهل تمنُّ سموات (٤) بأمطارِ ؟
أريْتُمونا عِياناً كلَّ مكرمةٍ كانت قديماً لدينا رَجْم أخبار (٥)

أمل

مدح ابن الرومى آل وهب وقد اشتهروا بالكتابة والوزارة . ولقد أطال فى مدائحهم إلى أن شاء الله أن يكون مقتله بالسم على يد القاسم وزير المعتضد الذى يمدحه الشاعر هنا :

وسائلين بحالى كيف صُورتُهـا فقلتُ : قد نَطَقَتْ حالى لمن عَقلا
قالوا أتأمُلُ مأمولاً ؟ فقلتُ لهم يؤمِّل المرء ما لم يبلغ الأملا

---

(١) إن مناقبكم وثنائى عليها حاضران هنا أمام أعين الناس فهل أبعدت الإشهاد عليها ؟
(٢) الأطواد جمع طود ، وهو الجبل العظيم .
(٣) يدعو لديارهم بأن تظل مقصداً للمادحين والشعراء .
(٤) إنكم تعطون ولا تمنون بالعطاء ، وهل تمن السماء على الرياض حين تجود عليها بالمطر ؟
(٥) لقد أريتمونا المكارم التى كنا نظن أنها أحاديث خرافة أو أخبار غير صادقة ، حتى بدت منكم رأى العين .

مثـل المسافر لا ينفكُّ من سَفرٍ ... حتى إذا هو وافى رَحْله نزلا

يا ابن الوزيرين يامن لا انصراف له ... عن سدِّه خللا ، أو عفوه جَللا (١)

كم فعـلة لك بى أرسلتَهـا مثلاَ ... ومدحةٍ فيك لى أرسلتُها مثلا

فتى وإن كان كهلاً فى جلالته ... كهلٌ وإن كان غضًّا غصنهُ خضلا

صادفت منـه بليغاً فى مواهبـه ... تعطى يداه تفاريق الغِنى جُملا (٢)

يَلقَى الوجوهَ بوجه ماؤه غَدَقٌ ... لا تسأم العينُ منه النهل والعَلَلا (٣)

المـال غائبُـهُ ، والحمـد آيبُهُ ... والمجد صاحبُهُ ، إن قال أو فعلا (٤)

ب ـ الهجاء

هجاء البحترى الشاعر

لقد تعاصر الشاعران الكبيران وتصاحبا على يد أبى عثمان الناجم ، ولكن البحترى لم يسلم من لسان ابن الرومى الذى قال يهجوه من قصيدة طويلة :

قد قلتُ إذ نَحَلوه الشعرَ : حاش له ... إن البرُوك به أولى من الخَبَب (٥)

البحتريُّ ذَنُوب الوجه تعـرفه ... وما رأينا ذَنوبَ الوجه ذا أدب (٦)

---

(١) الوزيران هما عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وسليمان بن وهب . وكان الأول وزيراً للمعتمد ، أما الثانى فكان وزيراً للمهتدى . كما كان الممدوح نفسه وزيراً للمعتضد . وسد الخلل هو سد النقص ، أى أن الممدوح لاهم له إلا سد النقص وجليل العفو .

(٢) الممدوح بليغ فى كرمه فهو يعطى متفرق الغنى جملة لا تجزئة .

(٣) النهل هو الشربة الأولى ، والعلل هو الشربة الثانية من الماء .

(٤) المال غائبه أى أن المال غائب عنه لأنه ينفقه فلا يبقى فى يديه .

(٥) حاشى للبحترى أن يكون شاعراً ، فليقر بعجزه خير من ادعاء المضى فيه . والبروك هو وقوع البعير على صدره والخبب نوع من السير .

(٦) ذنوب الوجه أى فى وجهه شعر لحية كالذنب . . .

أنَّى يقول من الأقوال أثقبَهَا مَن رَاح يحمل ُوجهاً سابغ الذَّنب؟
أولى بمن عظُمت فى الناس لحيتُه من نحْلِه الشعرِّأن ُيدعَى أبا العَجب(١)
الحظ أعمى ، ولولا ذاك لم نرَه للبحترىِّ بلا عَقلٍ ولا حَسَب
وَغدٌ يعاف مديحَ الناسِ كلهمُ ويطلب الشتمَ منهم جاهِدَ الطلب
قُبحاً لأشياءَ يأتى البحترىُّ بها من شعره الغثِّ بعد الكد والتعب
كأنها حين ُيصغِى السامعون لها ممن يميِّز بين النَّبع(٢) والغَرَب :
رُقَى العقارب أوهَذْرُ البُناة إذا أضْحَوا على شَعَفِ الجدران فى صَخَب(٣)
وقد يجىء بخلطٍ ... فالنُّحاسُ له وللأَوائل ما فيه من الذَّهبِ(٤)

عبق المخازى

مدح ابن الرومى إبراهيم بن المدبر وانتظر مكافأته . وطال به الانتظار فإذا بالممدوح يرد عليه القصيدة آبياً لمدحه . وهنا يهجوه ابن الرومى قائلا :

رددتَ علىَّ مدحى بعدَ مَطْلٍ وقد دنَّستَ ملبَسهُ الجديدَا
وقلتَ امدحْ به من شئت غيرى ومن ذا يَقبَل المدح الرديدَا ؟
ولا سِيمَا(٥) وقد أعبقْت فيه مخازيكَ اللواتى لن تبيدَا
وما للحىِّ فى أكفان مَيْتٍ لبُوسٌ بعد ما امتلأتْ صديدَا

---

(١) أولى بمن طالت لحيته من ادعائه الشعر أن يدعى أبا العجائب .
(٢) النبع شجر يعمل منه القوس والسهم ، والغرب نوع من الشجر . وفلان يميز بين النبع والغرب أى يميز بين الجيد والردىء .
(٣) كأن شعر البحترى لخلطه وعدم وضوحه – فى رأى ابن الرومى – الكلام الذى يقال لمن لدغته عقرب أو اختلاط أصوات البنائين وهم يصخبون على شعف الجدران أى أعاليها .
(٤) يتهم ابن الرومى البحترى بسرقة معانى من قبله . فله نحاس المعانى وللسابقين ذهبها .
(٥) ولا سيما بالتخفيف لوزن الشعر .

خلائق ممسوخة

مدح ابن الرومى قوماً من الرؤساء ، فلما لم يظفر منهم بنوال بعد ما أطال رشاءه فيهم هجاهم بهذه الأبيات :

قل للذين مدحتُهم فكأنما مُسخوا كلاباً غيرَ ذاتِ خَلاَقِ
رُدُّوا علىَّ صحائفاً سوَّدتُها فيكم بلا حقٍّ ولا استحقاقِ
ما كان مثلى مادحاً أمثالَكم لولا اتهامى ضامنَ الأرزاقِ (١)
أسخطتُ خلاَّقَ البرية فيكمُ فَبلغتمُ منى رِضا الخلاقِ (٢)
أَغْرقتُ فى نَزعى لكم ، ولَربما حُرِمَ الرماةُ الصَّيدَ بالإغراقِ (٣) . .

طول الوجوه

وليت التاريخ أخبرنا عن عمرو هذا الذى هجاه ابن الرومى فافتن فى هجائه ، ووصف وجهه بطول كطول وجوه الكلاب . . وأبدع ما فى هذه الأبيات أن الشاعر أقحم فيها بيتاً أو وزناً شعرياً بلا معنى ، ثم قال للمهجو إنك فارغ بلا معنى كمثل هذا البيت فى وسط الأبيات :

وجهُكَ ياعَمْرو فيه طولُ وفى وجوه الكلاب طولُ
والكلبُ واف وفيك غدر ففيك عن قدره سُفول
وقد يُحامى عن المواشى وما تُحامى ولا تَصولُ
وأنت من أهل بيت سُوءٍ قصَّتهم قصةٌ تطولُ

---

(١) يقول : إن مدح مثلى لأمثالكم هو اتهام لله ضامن الأرزاق . فإذا بؤت بالإخفاق فأنا الملوم لا أنتم لأننى أنزلت آمالى بغير خالق .

(٢) لقد أسخطت الله حين مدحتكم فنلتم من رضا الخالق بحرمانى أعطياتكم .

(٣) الإغراق فى نزع القوس هو مد وترها بشدة ومبالغة . وقد تكون نتيجة الإغراق فى النزع الحرمان من الصيد . وكذلك أنا حرمت عطاءكم حين أغرقت و بالغت فى مدحكم .

وجـوههم للورى عِظاتٌ لـكنَّ أقفاءهم طُبولُ(١)

« مستفعلن فاعلن فعولن مستفعلن فاعلن فعولُ »

بيت كمعناك ليس فيه معنى سِوى أَنه فُضول . . .

ج ـ الرثاء :

هدية الأب إلى الثرى

مات لابن الرومى ابنه الأول ، فقال يرثيه :

حماه الـكَرى همٌّ سَرَى فتأوَّبا(٢) فبات يُراعى النجم حتى تَصوَّبَا

أعينىَّ جُودا لى فقد جدتُ للثرى بأَكثرَ مما تَمنعان وأطيبَا

بُنىَّ الذى أُهديتهُ أمسِ للثرى فلله ما أقوى قناتى وأصلبَا

فإن تمنعانى الدمعَ أَرْجعْ إلى أسًى إذا فترتْ عنه الدموعُ تلَهَّبَا

ثكل السرور

وأبناؤنا مثل الجوارح ، كل جارحة يهلك النفس فقدها . وهنا يرثى الشاعر ولده الأوسط محمداً ، فيسمعنا أشجى ألحان الأبوة المفجوعة فى فلذة الكبد ، ومصيبة الولد :

بكاؤكما(٣) يَشْفى وإن كان لا يُجدى فجودا فقد أودى نظيركما عندِي

ألا قاتَلَ اللهُ المنايا ورمْيَها من القوم حبَّات القلوب على عمد

توخَّى حِمامُ الموت أوسط صِبيتى فلله كيف اختار واسطة العقدِ ؟

(١) أى أقفاؤهم تصلح للضرب والصفع عليها كالضرب على الطبول .

(٢) الكرى هو النوم ، وتأوب أى قصد بالليل ، وتصوب النجم نزل من علاه أى غاب .

(٣) الخطاب للعينين ، والمعنى أن بكاء العين يشفى من الهم ولكنه لا ينفع ولا يرد فاقداً .

على حين شِمتُ الخيرَ من لمحاته ... وآنستُ من أفعاله آيةَ الرُّشدِ
طواه الردى عنى فأضحى مزاره ... بعيدًا على قُربٍ قريباً على بُعدِ [(١)]
لقد أنجزَتْ فيه المنايا وعيدَها ... وأخلفت الآمالُ ما كان من وعدِ
لقد قلَّ بين المهد واللحدِ لُبثُه ... فلم يُنسَ عهدُ المهد إذ ضُمَّ فى اللَّحدِ [(٢)]
ألحَّ عليه النزفُ حتى أحاله ... إلى صفرة الجادِىِّ [(٣)] عن حُمرة الوردِ
وظل على الأيدى تَسَاقَطُ [(٤)] نفسُه ... ويَذْوَى كما يذْوَى القضيبُ من الرَّندِ [(٥)]
فيالك من نفْسٍ تَسَاقَطُ أنفساً ... تَساقُطَ دُرٍّ مِن نظام بلا عقد
عجبتُ لقلبى كيف لم ينفطرْ له ... ولو أنه أقسى من الحجرِ الصَّلدِ
وما سرَّنى أن بعتُه بثوابه ... ولو أنه التخليدُ فى جنة الخُلدِ
ولا بعتُه طوعاً ، ولكنْ غُصِبْتُهُ ... وليس على ظُلم الحوادث من مُعْدِ [(٦)]
وإنى وإن مُتِّعتُ بابنىَّ بعده ... لذاكرُه ماحنَّت النِّيبُ [(٧)] فى نجد
وأولادُنا مثلُ الجوارح أيُّها ... فقدناه كانَ الفاجعَ البيِّن الفقْدِ

---

(١) المزار مكان الزيارة ، والمعنى أن الميت صار بعيداً على الرغم من قرب مكان دفنه ، قريب المكان ولكنه بعيد المنال إلا بالذكريات . وهو قريب من قول لسان الدين بن الخطيب على لسان الموتى : « بعدنا وإن جاورتنا البيوت » .

(٢) كانت المدة بين مهده ولحده قصيرة جداً ، فلما ضمه القبر لم ينس عهد مهده لقصر ما بين العهدين .

(٣) الجادى نبات الزعفران وهو أصفر اللون .

(٤) تساقط أصلها تتساقط . أى تموت شيئاً فشيئاً . وفى هذا يقول امرؤ القيس .

فلو أنها نفس تموت سوية ... ولكنها نفس تساقط أنفسا

(٥) الرند نبات من شجر البادية طيب الرائحة .

(٦) أعدى فلاناً على فلان أى نصره . أى ليس هناك من ناصر على ظلم الحوادث .

(٧) النيب جمع ناب وهى الناقة المسنة .

لـكلِّ مكانٍ لا يسدُّ اختلالَه … مكانُ أخيه من جَزوع ولا جَلْد (١)

هل العينُ بعد السمع تَـكفى مكانَه … أو السَّمع بعد العين يَهْدى كما تَهدى؟

لعمرى لقد حالت بى الحالُ بَعْده … فياليت شعرى كيف حالت به بعدى؟

ثـكلتُ سرورى كلَّه إذ ثـكلتُه … وأصبحتُ فى لذات عيشى أخازهدِ

أريحانةَ العينين والأنف والحشا … ألا ليت شعرى هل تغيرتَ عن عهدى؟

سأسقيك ماء العين ما أسْعَدَتْ (٢) به … وإن كانت السُّقيا من الدمع لاتجدى

أعينىَّ جودًا لى فقدجُدتُ للثرى … بأنفسَ مما تُسألان من الرِّفدِ (٣)

كأنىَ ما استمتعتُ منكَ بضمة … ولا شمَّةٍ فى ملعب لك أو مهدِ

ألامُ لما أُبدى عليكَ من الأسى … وإنى لأُخفى منكَ أضعاف ما أُبدى

محمـدُ ماشىءٌ تُوُهِّمَ سَلوةً … لقلبىَ إلا زاد قلبى من الوجدِ

أرى أخويك الباقيينْ كليهما … يكونان للأحزان أوْرَى (٤) من الزَّند

إذا لعبا فى ملعبٍ لك لذَّعا … فؤادى بمثل النار عن غَير ما قصد

فمـا فيهما لى سلوةٌ بل حَزازة … يَهيجَانها دونى ، وأشقى بها وحدى

وأنت وإن أُفردتَ فى دار وَحشة … فإنى بدار الأنس فى وَحشة الفردِ

عليكَ سلامُ الله منّى تحية … ومن كل غيثٍ صادق البرق والرعدِ

---

(١) الجزوع هو الكثير الجزع ، والجلد هو الصبور على الحوادث .

(٢) ما أسعدت به أى ما دامت مسعفة لى بالبكاء .

(٣) الرفد العطاء والمقصود هنا الدموع .

(١) أورى من الزند أى أشد إشعالا للنار من الزند الذى يحك بعضه ببعض فيوقد ناراً .

أين العزاء ؟

وهذه دمعة أخرى للشاعر يبكي بها ولده « هبة الله » ، وقد أوحشت الدنيا بعد موته ، حتى صار يؤثر الأخرى عليها . وما أشد فجيعة الشاعر هنا وهو يسلم فى آخر بيت بأن أولادنا هم لنا زينة الدنيا وفتنتها ، فإذا فارقونا فهم المحنة والبلاء :

أُبنىَّ إنك والعزاءَ[1] معاً   بالأمس لُفَّ عليكما كَفَنُ

تالله لا تنفكُّ لى شَجناً   يَمْضى الزمانُ وأنت لى شَجَنُ

ما أصبحتْ دنياى لى وطناً   بل حيثُ دارُكَ عندىَ الوطَنُ

ما فى النهار وقد فقدتك من   أُنس ، ولا فى الليل لى سَكَنُ

ولقد تُسلِّى القلبَ ذِكْرتُهُ   أَنى بما ألقاك مُرْتَهنُ[2]

أولادَنا ! أنتم لنا فِتن[3]   وتفارقون فأنتمُ مِحَنُ

---

(١) العزاء هو التسلى عن الحوادث بالصبر .

(٢) معنى البيت أن الذى يسلى قلبى عن الأحزان فيك تذكرى بأنى سألقى المصير الذى لقيته وسألقاك فى الدار الآخرة .

(٣) الأبناء فتنة لآبائهم حين يعيشون ، فإذا ماتوا فهم المحنة والمصيبة .

مصرع الشهيد

هذا الشهيد يحيى بن عمر من آل بيت على ، وكان كثير التدين كثير الخير ، ضيق العباسيون عليه حتى بلغ حالة شديدة من الفقر . وقد خرج على العباسيين ودعا الناس إلى الرضى من آل محمد ، فتبعه ناس من أهل الكوفة ومن الأعراب . ولما كثرت جموعه وقويت شوكته أرسل إليه أمير بغداد محمد بن طاهر عسكراً التقوا به عند قرية « شاهى » قرب الكوفة . فقتل الشهيد وحمل رأسه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر ببغداد ، جلس يتقبل التهنئات فى ذلك . . .

وهذه بعض مرثية ابن الرومى الطويلة الفاجعة لهذا الشهيد . ويقول أبو العلاء المعرى فى رسالة الغفران إن البغداديين يستشهدون على تشيع ابن الرومى بهذه القصيدة :

أمامكَ فانظر أىّ نهجيكَ تَنْهجُ ... طريقان شتّى : مُستقيمٌ وأعوجُ

ألا أيهذا الناس طال ضريركم[1] ... بآل رسول الله فاخشوا أو ارتجُوا

أكلَّ أوان للنبى محمــد ... قتيــلٌ زكىٌّ بالدماء مُضرَّجُ ؟

تبيعون فيـه الدين شرَّ أئمة ... فلله دينُ الله قد كادَ يَمْرجُ[2] !

بَنى المصطفى كم يأكل الناس شِلْوكم[3] ؟ ... لبلواكمُ عما قليــل مُفرَّجُ[4]

أما فيهــم راعٍ لحق نبيّه ... ولا خائفٌ من ربه يتحرجُ ؟

لقد عمهوا ما أنزل الله فيكمو ... كأن كتاب الله فيهم مُمَجْمَجُ[5]

أَبعْدَ المكنَّى بالحسين شهيدِكم ... تضىء مصابيحُ السماء فتسرجُ ؟

أيحيى العلا لهْفى لذكراك لهفةً ... يُباشر مكواها الفؤادَ فينضَجُ

---

(١) الضرير هو الضرر وإيقاع المضرة .

(٢) مرج الأمر أى اختلط واضطرب وفسد .

(٣) الشلو العضو من الجسد والجمع أشلاء .

(٤) المفرج التفريج وانكشاف الأمر بعد الضيق .

(٥) عمهوا أى تحيروا وضلوا . والكتاب هو القرآن الكريم . وممجمج أى غير بين ولا واضح .

أحين تراءتك العيون جِلاءها ... وأقذاءها أضحت مراثيك تُنسجُ[1]؟

لمن تَسْتجدُّ الأرض بعدك زينةً ... فتصبح فى أثوابها تتبرَّجُ ؟

سلامٌ وريحان ورَوْح ورحمةٌ ... عليك، وممدودٌ من الظل سَجْسَجُ[2]

ألا إنما ناحَ الحمائمُ بعد ما ... ثوَيت ، وكانت قبل ذلك تَهْزجُ

عفاءٌ على دار ظَعَنتَ لغيرها ... فليس بها للصالحين مُعرَّجُ[3]

ألا أيها المستبشرون بيومه ... أظلَّتْ عليكم غُمةٌ لا تُفرَّجُ[4]

أكلكم أمسى اطمأنّ مِهادُه ... بأن رسول الله فى القبر مُزعجُ ؟

كدأب « علىّ » فى المَواطن قبلَهُ ... أبى حَسَنٍ والغُصن من حيث يَخْرجُ

كأنى أراهُ والرماح تنوشُه[5] ... شوارعَ كالأشطان تُدْلى وتُخلجُ[6]

كأَنى أراهُ إذ هوى عن جواده ... وعُفِّر بالتُّرب الجبينُ المشججُ[7] !

فحُبَّ به جسماً إلى الأرض إذ هوى ... وحَبَّ به رُوحاً إلى الله تعرُجُ !

أَجِنُّوا بنى العباس من شَنَآنكم ... وأوْكُوا على ما فى العِياب وأشْرِجوا[8]

---

(١) أبعد أن كنت قذى لبعض العيون وجلاء لرائيك تصبح شهيداً وتنسج المراثى فى رثائك ؟

(٢) الظل السجسج هو المعتدل بين الحر والبرد .

(٣) عرج على المكان أى مال إليه وطاف به . وظعن أى رحل عن المكان . والقرآن يقول : (تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم) .

(٤) يدعو الشاعر هنا على الذين فرحوا بمقتل الشهيد بأن تظلهم سحابة من الغم لا تنفرج .

(٥) تنوشه الرماح أى تتخطفه من كل جانب .

(٦) الرماح الشوارع هى القائمة المسددة للطعان . الأشطان جمع شطن وهو الحبل . وتخلج أى تجذب . شبه ابن الرومى الرماح بأحبال البئر حين تدلى فيها وتنزع منها .

(٧) الجبين المشجج الذى به شج أى كسر .

(٨) أجنوا أى أخفوا واستروا . الشنآن البغض . أوكى على القربة أى شد عليها الوكاء أى الرباط . العياب جمع عيبة وهى الحقيبة أو ما يشبهها . أشرج الشىء ضم بعضه إلى بعض وشده .

وإنى على الإسلام منكم لخائف بوائقَ[1] شتَّى بابُها الآن مُرْتَجُ

نَظَارِ فإن الله طالبُ وِتره بَنِي مُصْعَبٍ لن يسبق اللهَ مُدلجُ[2]

لعل قلوباً قد أطلتم غليلها ستظفَرُ منكم بالشفاء فتثلجُ !

د ــ الوصف

ليل أيلول

يقابل شهر أيلول بالرومية شهر سبتمبر من السنة الميلادية . وفيه تبتدئ لذعات البرد وتسكن الريح الساجية ، وتحلو السماء الصافية حين ينيرها القمر المطل . وهنا يصف الشاعر هذا الشهر :

لولا فواكهُ أيلولٍ إذا اجتمعت من كل نوع ورقَّ الجو والماءُ

إذن لما حفلت نفسى[3] متى اشتملت علىَّ هائلةُ الجالين[4] غبراءُ !

يا حبذا ليلُ أيلول إذا بَرَدت فيه مضاجعُنا والريح سجواءُ[5]

وجَمَّشَ[6] القرُّ فيه الجلدَ فأْتلفتْ من الضجيعين أحشاءٌ فأحشاءُ !

(١) البوائق جمع بائقة وهى الأمر المهلك .

(٢) نظار أى انتظروا . وهو اسم فعل أمر مثل حذار . والمدلج السارى ليلا . وبنو مصعب هم أبناء أسرة طاهر لأن جدهم الأعلى هو طاهر بن الحسين بن مصعب . ويخاطبهم ابن الرومى فى هذه القصيدة قائلا :

بنى مصعب ما للنبى وأهله عدو سواكم ، أفصحوا أو فلجلجوا

والقصيدة كاملة فى ديوان ابن الرومى شرح الشيخ شريف . وفى كتاب « مقاتل الطالبيين » لأبى الفرج الأصبهانى .

(٣) ما حفلت نفسى أى لم آبه ، ولم أبال .

(٤) الجال هو الجانب من الشيء . واشتملت على هائلة الجانبين أى احتوتنى بقعة أرض عظيمة الجانبين مغبرة الأديم .

(٥) ريح سجواء أى ساجية ساكنة .

(٦) جمش القر الجلد أى قرص البرد الجلد ولذعه .

وأسفر القمرُ السارى فصفحتهُ رَيّاً[١] ، لها من صفاء الجو لألاء !
يا حبذا نفحةٌ من ريحه سَحَرا تأتيك فيها من الرَّيحان أنباء !
قل فيه ما شئتَ من شهر تَعَهَّدُهُ فى كل يوم يدٌ لله بيضاء[٢]

تبرج الدنيا فى الربيع

وعندما يأتى الربيع تصور وجوه الأرض صورة فاتنة ، فتروق الدنيا كل ناظر إليها ، وتلبس الأرض أثواباً أنيقة من رائق الزهر ، كأنها أنثى قد أخذت زينتها لاستقبال الرجل :

أصبحتِ الدنيا تروقُ مَن نَظرْ بمنظر فيه جَلاءٌ للبَصرْ
أثنت على الله بآلاء[٣] المطرْ فالأرض فى روض كأفواف الحِبَرْ[٤]
نيرةُ النوّار زهراء الزَّهَرْ تبرجت بعد حياءٍ وخَفَرْ[٥]
تبرُّجَ الأُنثى تصدَّت للذكَرْ

تهلل السحاب

وعندما يقصف الرعد ويخطف سنا برقه الأبصار ينحدر ماء الغمام من عيون السماء ، فيغمر البقاع والربى ، وهنا يضحك الروض المزهر لبكاء السماء . فيتفتق نواره عن أجمل الأزهار ، ويتضوع الجو بأنفاس طيبات هى أرج الزهر ، ويغرد المكاء – وهو نوع من القنابر – كأنه طرب مشوق بالغناء :

متهلل زَجِلٌ تحنُّ رواعد من حُجرتيه[٦] وتستطيرُ بُروقُ
سدَّت أوائله سبيل أواخر لم يَدْر سائقُهن كيف يسوقُ

---

(١) ريا مؤنث ريان أى مملوء بالحسن وكثرة النعمة .
(٢) اليد البيضاء هى المنة والصنيعة الطيبة الغراء .
(٣) الآلاء النعم ومفرده إلى ، وألى . ومنه قوله تعالى : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) .
(٤) الأفواف جمع فوف وهو النقش المخطط . والحبر جمع حبرة وهى نوع من الثياب الثمينة الفاخرة الملونة .
(٥) الخفر هو شدة الحياء .
(٦) الحجرة الناحية من الشىء .

فَسَخَا وأسعد حاَلِبيه بدَرَّةٍ[١] منه سواعدُ ثَرَّةٌ[٢] وعُروقُ
وتنفست فيه الصَّبا فتبجست منه الكُلَى فأديمه معقوقُ[٣]
حتى إذا قُضِيت لقيعان الملا عنه حُقوق بَعْدَهن حقوقُ
طفقت رواياه[٤] تجرُّ مَزادها فوق الرُّبى ومزادُها مشقوقُ
وتضاحك الروضُ الكئيب لصَوْبه حتى تفتق نَوْرُه المرتُوقُ[٥]
وتبسمت نفحاته فكأنَّه مسْكٌ تضوَّعَ فأرُه مفتوقُ[٦]
وتغرّد المُكَّاء[٧] فيه كأنه طَرِبٌ تَعلّل بالغناء مَشوقُ

رياض ذات وشى

وهنا يصف ابن الرومى رياضاً تختال فى أزهارها اختيال الفتاة فى أثوابها ، وقد كان شاعرنا مفتونا بالطبيعة مراقباً لصحوات الحياة فيها ، متنبها إلى مظاهرها فى الدقيق والجليل منها :

ورياضٍ تخايلُ الأرضُ فيها خُيلاَءَ الفتاة فى الأبْرادِ[٨]
ذاتَ وَشْيٍ تناسجتْه سَوارٍ[٩] لَبِقاتٌ بحَوْكه وغوادِ[١٠]

(١) الدرة هى الدفقة من الحلب .
(٢) ثرة أى غزيرة الماء .
(٣) أديم الشىء سطحه وظاهره . ومعقوق أى مشقوق .
(٤) الروايا جمع راوية وهى الدابة التى تحمل الماء للسقاية . والمزادة ما يوضع فيه الزاد .
(٥) الصوب هو المطر المنهمر . والنور هو ما يتفتح من نوار الزهر . والمرتوق الذى لم يشق عنه وعاؤه . فهو لما يتفتق بعد .
(٦) فأرة المسك أى وعاؤه الذى يوضع فيه . والمفترق الذكى الرائحة . وفتق المسك شقه ليستخرج منه رائحته .
(٧) المكاء بضم الميم وتشديد الكاف نوع من الطير يشبه القبرات . والجمع مكاكى .
(٨) الأبراد جمع برد وهو الثوب .
(٩) سوار أى ساريات جمع سارية وهى الماشية ، ومنه السري وهو المشى ليلا .
(١٠) غواد جمع غادية وهى السحابة التى تغدو .

شَكَرَتْ نعمةَ الوليِّ على الوسْـ ـمىِّ ثمَّ العِهاد بَعْد العهادِ[1]

فهى تُثنى على السماء ثناءً طيِّبَ النشر شائعاً فى البلادِ

مِن نسيم كأنَّ مَسْراه فى الأر واح مَسْرى الأرواح فى الأجسادِ

حملت شكرها الرياح فأدَّت ما تؤديه ألْسُنُ العوَّادِ

منظرٌ مُعجب تحيةُ أُنْفٍ ريحُها ريحُ طيِّب الأولادِ[2]

تتداعى[3] بها حمائمُ شتّى كالبواكى وكالقيان الشوادى

من مَثانٍ ممتعـات قِرانٍ وفِرادٍ مفجَّعاتٍ وِحادِ[4]

تتغنى القِرانُ منهن فى الأيْـ ـك وتبكى الفِراد شجْوَ الفِرادِ

تفضيل النرجس على الورد

لماذا كره ابن الرومى الورد فوصفه أقبح وصف وفضل عليه النرجس ؟ أهو ذوقه الخاص ؟ أم هو سبيل المخالفة إلى المفارقة ؟ أم هى القدرة فى تفضيل شىء على شىء ؟ إن حمرة الورد – هى عند ابن الرومى – حمرة الخجل من تفضيل النرجس عليه . . .

خجلت خُدودُ الورد من تفضيله خجلاً تَوَرُّدُها عليه شاهدُ

لم يخجل الوردُ المورَّد لونهُ إلا وناحِلُهُ الفضيلةَ عاندُ[5]

---

(١) الولى هو المطر بعد المطر . والوسمى أول مطر الربيع . والعهاد جمع عهد وعهدة وهو أول مطر الربيع .

(٢) الروضة الأنف هى التى لم يرعها أحد .

(٣) تتداعى أى يدعو بعضها بعضاً .

(٤) أى تسجع فى الرياض حمائم بعضهن أزواج مسرورات بالصحبة ، وبعضهن فرادى مفجعات بالوحدة . فالأزواج يتغنين فى الأيك ، والأفراد الوحاد يبكين شجو النوائح .

(٥) ناحله الفضيلة أى ناسب الفضل والمزية إليه .

للنرجس الفضلُ المُبين وإن أبى ... آبٍ وحادَ عن الطريقة حائدُ[١]

فَصْلُ القضيةِ أَنّ هذا قائدٌ ... زهرَ الربيع وأنّ هذا طاردُ ...[٢]

شتان بين اثنين هذا مُوعدٌ ... بتسلُّب الدنيا ، وهذا واعدُ

وإذا احتفظتَ به فأمتعُ صاحب ... بحياته ، لو أنّ حيًّا خالدُ ؟

يحكى مصابيحَ السماء وتارةً ... يَحكي مصابيحَ الوجوه تُراصدُ[٣]

ينهَى النديمَ[٤] عن القبيح بلحظه ... وعلى المُدامة والسماع يُساعدُ . . !

بعض ليالى بغداد

كانت بغداد فى عصر ابن الرومى مباءة لليلات صواخب ، يجتمع فيها التجار والكتاب والشرط الجهلاء على مائدة ابنة العنب ، ويتمتعون بالمباح وغير المباح من الجوارى اللابسات شفوفاً رقيقة كالهواء الرقيق أو كالسراب . . .

دُرٌّ صَهباءَ قد حكى دُرَّ بيضا ... ءَ عَروبٍ كدُمية المحرابِ[٥] !

تحمل الكأس والُحليّ فتبدو ... فتنةَ الناظرين والشُرّابِ

يا لها ساقياً تُدير يداه ... مستطاباً يُنال من مستطابِ[٦] !

---

(١) حاد أى مال عن استقامة الطريق .

(٢) قضية الخصومة بين الورد والنرجس التى حكم فيها الشاعر للنرجس هى قضية ظاهرة . فالنرجس يظهر فى أول الربيع فهو قائد له ومبشر به . والورد يظهر فى آخر الربيع فهو طارد له . . .

(٣) مصابيح السماء هى النجوم قال تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) سورة الملك ، تراصد أى تطلع .

(٤) النديم هو الذى ينادم ويسامر على الشراب .

(٥) الصهباء هنا هى الخمر التى فى لونها حمرة . والبيضاء هى الجارية . العروب المرأة المتحببة إلى من يعاشرها .

(٦) المستطاب الأولى هى الخمر التى تديرها الفتاة نفسها ، والثانية هى الفتاة نفسها. فهى طيبة تحمل طيباً .

لذةُ الطعم فى يدى لذة المَلْ ... ثَم تدعو الهوى دعاء مجابِ
من جَوار كأنهن جوارٍ ... يتسلسلن من مياه عِذابِ[١]
لابساتٍ من الشُّفوف لبوساً ... كالهواء الرقيق أو كالسرابِ
ومن الجوهر المضيء سناه ... شُعَلا يلتهبن أىَّ التهابِ !
فترى الماء ثَم والنارَ والآ ... لَ بتلك الأبشار والأسلابِ[٢]
يُوجِس الليل ركزَهنَّ فينجا ... بُ وإن كان حالك الجلبابِ[٣] !
عن وجوه كأنهن شموس ... وبدورٌ طَلعْن غِبَّ[٤] سحابِ ..

أنفاس عباس

كان عباس قارئاً يحسن الصوت وامتداد النفس ، فكأن صوته بقية من أنغام داود . . .

لله درُّك يا عباسُ قارئةً[٥] ... لقد علوتَ فلم يبلغك مقياسُ
إن كان داوُدُ أبقى بعده خَلَفاً ... فى حُسن نَغْم وجِرْم[٦] فهو عبَّاسُ
صوتٌ ندىٌّ وأنفاسٌ مساعدةٌ ... كأنما نفَسٌ منهن أنفاسُ[٧]

---

(١) الجوارى الأولى جمع جارية بشرية ، والثانية اسم فاعل من جرى الماء يجرى ، يشبه الجوارى – فى طيب رضابهن – بالعيون العذبة الجارية .

(٢) فى هذه الحسان يجتمع الأضداد من الماء والنار والسراب .

(٣) الركز هو الصوت الخفى . والمعنى أن الليل يخشى صوتهن فينجلى سواده الحالك .

(٤) غب سحاب أى عقب سحاب . وما أجمل البدر إذا طلع بعد أن كان يحجبه السحاب .

(٥) القارئة صيغة مبالغة للقارىء .

(٦) الجرم بكسر الجيم هو وزن الصوت . وتروى هذه اللفظة « وجرس » .

(٧) أى أن نفس القارىء طويل المدى كأنه أنفاس متعددة .

يظل سامعه لُدْناً مفاصلُه كأنما فتَّرت أوصالَه الكاسُ[١] !

أحيا لنا سَلَفَ القرّاء كلِّهمُ فأَسمعونا وهم هامٌ وأرماسُ[٢]

لا ينكر اللهُ إثباتي فضيلَتَهُ ولا الملائكةُ الأبرارُ والناسُ ...

حاضنة العود

وهنا يصف الشاعر مغنية وراقصة من بنات الترك، تحتضن عودها المسنود إلى ثديها الناجم، وقد لبست من الشفوف ما يشف عن جمال فاتن . . .

فتاة من الأتراكِ ترَمى بأسهم يُصبن الحشا في السِّلم لا في المعاركِ

ظللنا لها نُصْباً تشكُّ قلوبنا بذاك الشجا الفتّان لا بالنيازكِ[٣]

لطيفة قدٍّ الثدى تسند عودَها إلى ناجم في ساحة الصدر فالكِ[٤]

تَطَامَن عن قدِّ الطِّوال قَوامُها وأربى على قدِّ القصار الحواتكِ[٥]

إذا هي قامت في الشُّفوف[٦] أضاءها سَناها فشفّت عن سبيكة سابكِ ...

---

(١) فترت أي أوهنت وأضعفت، والمعنى أن صوت هذا القارئة يسكر سامعه فترتخى مفاصله من شدة الطرب .

(٢) الهام جمع هامة وهى الرأس ، والأرماس القبور .

(٣) النيازك جمع نيزك وهو الرمح القصير .

(٤) الفالك هو الثدى المستدير . وقد فلك ثدى الجارية أى استدار .

(٥) الحواتك من النساء القصار الخطى .

(٦) الشفوف جمع شف وهو الثوب الرقيق الذى يشف عما تحته .

ركوب البحر

ركب الشاعر متن الماء فى نهر دجلة فكأنه ركب أهوال البحر المحيط . . . ولم يكن ابن الرومى أخا سفر ولا جواب أرض . وهذه الأبيات من قصيدة طويلة يمدح فيها ابن ثوابة ويصف مشاق رحلته إليه . . .

وأما بلاءُ البحر عندى فإنه ... طَوانى على رَوْع مع الرُّوح واقبِ (١)

ولو ثاب عقلى لم أدَعْ ذكرَ بعضه ... ولكنه من هوله غيرُ ثائبِ (٢) !

ولِمْ لا ولو أُلقيتُ فيه وصخرةً ... لوافيتُ منه القعر أولَ راسبِ !

ولم أتعلم قطُّ من ذى سباحة ... سوى الغوص ! والمضعوفُ غير مغالبِ

فأيسَرُ إشفاقى من الماء أننى ... أمرُّ به فى الكُوز مرَّ المُجَانبِ !

لدجلةَ خِبٌّ ليس لليمِّ ! إنها ... ترائى بحلم تحته جَهْلُ واثبِ (٣)

تَطامنُ حتى تطمئن قلوبُنا ... وتغْضبُ من مزح الرياح اللواعبِ !

ترانا إذا هاجت بها الريح هيبجة ... نزلزَلُ فى حَوماتها بالقواربِ (٤)

نُوائلُ من زَلزالها نَحْو خسفها (٥) ... فلا خير فى أوساطها والجوانبِ

زلازلُ موج فى غمار زواخرٍ ... وهدَّاتُ خَسف فى شُطوط خوارب

(١) الروع الفزع . والواقب المستكن أو المنتشر . ومنه وقبت الشمس .

(٢) ثاب العقل أى رجع .

(٣) الخب هو المكر والخداع . والواثب هو المشمر للغيظ والشر .

(٤) الحومة هى وسط المعركة وأشدها هولا . وحومة الماء والبحر معظمه .

(٥) نوائل أى نلجأ ونخلص . وخسف السفينة هو جوانبها التى تغور فى الماء وتميل . وزلزالها : وسطها الذى يتزلزل .

وللَّيمِّ أعذارٌ بعرض مُتونه ومَا فيه من آذيِّه المتراكبِ(١)
ولستَ تراه فى الرياح مزلزلًا بما فيه إلا فى الشِّداد الغوالبِ(٢)

وصف سفينة

لقد كانت المطايا تنيخ عند أبواب الممدوحين فى العصر الجاهلى والإسلامى والأموى ، أما فى العصر العباسى ، فإن المادح يركب إلى ممدوحه السفن . . . وهنا يصف ابن الرومى سفينة ركبها فى رحلته إلى علي بن الفياض . . .

رحلنا(٣) من بنات البحر جُونا(٤) تَهَـادَى بين شُبان وشيبِ
نواجٍ فى البطائحِ مُلقياتٍ حيازمها على الهَوْل المهيبِ(٥) . .
مزمَّمة الأواخر ســائرات على أصلابها شَبَهَ الزبيبِ(٦)
تـكاد إذا الرياحُ تعَاورتهــا تفُوتُ وفودَها عند الهُبوبِ(٧) .
مسخَّرةً تجوب دُجى الليالى بمثل الليل كالفَرَس الذَّنوبِ(٨)

---

(١) الآذى هو الموج . والمتراكب الذى يعلو بعضه بعضاً . ومعنى البيت أن البحر معذور إذا هاج وثار عذرا واسعاً سعة أطرافه وسطوحه .

(٢) لا تزلزل الرياح البحر وما فيه ومن فيه إلا إذا كانت شديدة غالبة .

(٣) رحلنا البحر أى حططنا عليه رحلا من السفن كما يرحل البعير .

(٤) بنات البحر كناية عن السفن . والجون السود .

(٥) نواج أى سريعات وهو تشبيه للسفن بالنياق . والحيازم جمع حيزوم وهو صدر السفينة .

(٦) مزممات الأواخر أى أواخرها مشدودة شداً متيناً كالزمام للناقة . وأصلاب السفينة هى أسفلها الذى فيه حنايا وأضلاع تصلب الإنسان .

(٧) تعاورتها الرياح أى اختلفت عليها . والمعنى أن السفينة لسرعتها تكاد تفوت الرياح وتسبقها .

(٨) مسخرة أى سخرها الله للناس ليركبوا فيها على متن البحار . والفرس الذنوب هو الفرس ذو الذيل الضافى المسبل . ويشبه الشاعر السفينة فى سوادها بالفرس الأسود .

أَبَتْ أعجازُها بمقـدِّمات لها إلا مطاوعةَ المجيبِ[١]
غَنِينَ عن المقادِمِ والهوادى وعن إسراجهنَّ لَدى الركوبِ[٢]
حَططْن بواسطٍ من بعدِ سبْعٍ[٣] وقد مَال الشروق إلى الغروبِ

ليلة فى خان

فى رحلة ابن الرومى إلى ممدوحه ابن ثوابة اضطر أن يبيت – خلال الطريق – فى خان قديم البناء متداعى السقوف ، يكف من خلال ثقوبه ماء المطر . فرصفه قائلا :

فملتُ إلى خانٍ مُرثٍّ بناؤه مَميل غريقِ الثوب لهفان لاغبِ[٤]
فلم أَلْقَ فيه مُستراحاً لمتعَب ولا نزلا ، أيَّان ذاك لساغب[٥] ؟ !
فما زلتُ فى خوفٍ وجوعٍ ووحشةٍ وفى سَهر يستغرق الليلَ واصبِ[٦]
يؤرقنى سَقف كأَنى تحتَه من الوكف تحتَ المدجِنات الهواضب[٧]
تَرَاه إذا ما الطينُ أثقل مَتْنَه تَصرُّ نواحيه صَرير الجنادب[٨]

(١) الأعجاز هى مؤخرات السفينة . أى أنها مطيعة لمن يسير دفتها .
(٢) المقادم هى مقدمات الرحل للبعير . والهوادى أول ما يطلع من الإبل فى المشى .
والمعنى أن هذه السفن قد استغنت عن عدة الرحل وعن وضع السرج كالمطايا .
(٣) سبع أى سبع ليال وهى مدة رحلة السفينة التى ركب الشاعر فيها البحر .
(٤) المرث البالى . مميل غريق الثوب أى ميل غريق الثوب . اللاغب الذى أعياه السير وأجهده .
(٥) مستراحاً أى مكاناً للراحة من التعب . والساغب الجائع المتعب .
(٦) الواصب الدائم الثابت .
(٧) الوكف سقوط المطر . المدجنات الأمطار الغزار . والهواضب التى يدوم مطرها فلا ينقطع .
(٨) صرير الجنادب أى صوت الجراد .

أسد

لقد وصف شعراء العربية الأسد كالمتنبي وابن حمديس الصقلي ، كما رويت قصيدة لبشر بن عوانة يصف بها أسداً صرعه ، وقيل إنها من وحي الخيال لا من صميم الواقع . ونحن هنا نذكر وصف ابن الرومي للأسد ، مما يضيفه إلى قائمة وصافي الأسود . . .

مُسمَّى بأسماء فمنهن ضيغمٌ ومنهن ضِرغام ، ومنهن قسْوَرُ
له جُنّةٌ لا تستعار وشكةٌ هُوَ الدهرَ في هَذِي وهَذِي مكفَّرُ (١)
إهابٌ كتَجْفاف الكميِّ حصانةً وَعُوجٌ كأطراف الشَّباحين يَفْغَرُ (٢)
وحُجْنٌ كأنصاف الأهلة لا يَنِي بهنَّ خضابٌ من دم الجوف أحمرُ (٣)
تظل له غُلْب الأسود خواضعاً ضوارب بالأذقان حين يزمجرُ
له ذَمراتٌ حين يُوعدُ قِرْنه تكادُ لها صُمُّ السِّلام تَفَطَّرُ (٤)
يراه سُراة الليل والدَّوُّ دُونَه قريباً بأدنى مسمع حين يزأرُ (٥)

---

(١) الجنة هي سترة الأسد التي تقيه كالمجن أي الترس . الشكة هي السلاح . ومكفر أي مستور . ومنه قولهم : الليل كافر أي ساتر . والمعنى أن الأسد مستور في سلاح له دائم لا يستعار ولا يخلع كالسلاح .

(٢) التجفاف نوع من الدروع ، والعوج الأنياب . وأطراف الشبا هي أطراف الرماح أو السيوف . ويفغر أي يفتح فمه .

(٣) الحجن جمع حجناء وهي الأذن المائلة . كأنصاف الأهلة أي أن الأذن تشبه نصف الهلال في شكلها .

(٤) الذمرة هي زئير الأسد . يوعد أي يهدد . وصم السلام أي الحجارة الجامدة . والسلام على وزن كتاب والواحدة سلمة على وزن فرحة . وتفطر أي تتفطر وتنشق .

(٥) الدو البرية الواسعة . أي حين يزأر الأسد يظنه السارون ليلا قريباً منهم مع أن بينه

يُدير إذا جَنَّ الظلام حِجاجَه شهابَ لظًى يَغْشَى له المتنورُ[١]

شديدُ القُوى، عَبْل الشَّوَى، مُؤْجدالقَرا مُلاحكُ أطباق الفقار ، مضبَّرُ[٢]

أخو وحدة تُغنيه عن كل مُنجدٍ له نجدة منها ونصرٌ مُوزَّرُ . . .

ثقيل

لقد أبدع ابن الرومى فى وصف الثقلاء والعور والحدب وذوى العاهات جملة . حتى لقد صورهم فى أكثر مباذلهم إضحاكاً وإثارة للسخرية . وهنا وصفه لثقيل :

يا أبا القاسِم الذى ليس يَدرى أرصاصٌ كِيانُه أم حديدُ

أنت عندى كماء بئرك فى الصَّيـ ف ثقيلٌ يعلوه بَرْد شديدُ ! !

ثقيل آخر

يظهر أن ابن الرومى كان موعوداً بالثقلاء فى حياته ، حتى ليعجب أبو هلال العسكرى من دقة معانيه فى وصفهم . والأبيات التالية من قصيدة فى ثقيل اسمه « فضيل » :

أنتَ فضلٌ[٣] ، وفضلةُ الشيء لغوٌ ثم أردفت ذِلة التصغيرِ !

حُقر الفضلُ ثم صُغِّرتَ عنه زادك الله ياصَغيرَ الحقيرِ !

فقبولُ النفوسِ إياك عندى آيةٌ فيك للَّطيفِ الخبيرِ

---

(١) الحجاج هو عظم الحاجبين . والمعنى أن عين الأسد فى ظلام الليل ترسلان ناراً تصيب الناظر إليها بالعشى .

(٢) عبل الشوى أى ضخم الأطراف . ومؤجد القرا أى قوى الظهر . والملاحك فقار الظهر هو المتداخلة فقاره بعضها فى بعض . والمضبر الذى تلمزت عظامه واكتنز لحمه .

(٣) الفضل هو الزيادة من كل شىء والزيادة لغو وفضول .

إن قوماً أصبحت تَنْفُق[١] فيهم ... لَعلَى غاية من التسخير

يا ثقيلاً على القلوب ، خفيفاً ... فى الموازين دُون وزن النقير[٢]

طِرْ سخيفاً ، وَقَعْ مَقيتاً ، فطوراً ... كسَفَاةٍ ، أوتارة كثَبِيرٍ[٣] . . . !

هـ ـ الغزل

جراح القلوب

ولم لايفتتح ابن الرومى مدائحه بالغزل والنسيب على عادة الشعراء قبله؟ لقد مدح الحسن بن إسماعيل القاضى بمدحة استهلها بالنسيب الآتى :

الحبُّ ريحانُ المحب وراحُهُ ... وإليه إنْ شَحَطت نواه طِماحُهُ[٤]

يغدو المحب لشأنه وفؤاده ... نحوَ الحبيب غدوُّهُ ورَواحُهُ . .

يا ليت شعرى هل يبيتُ مُعانقى ... ويَداىَ مِنْ دُونِ الوشاح وشاحُهُ ؟!

ظبى أَصِحَّ وأُمْرِضتْ ألحاظه ... والحسن حيث مِراضُه وصحاحُهُ[٥]

يغدو فتكثر باللحاظ جراحُنا ... فى وجنتيه ، وفى القلوب جراحُهُ[٦]

مَنْ قائلٌ عنى لمن أحببتُه ! ... هل يُنقعُ اللُّوحُ الذى ألتاحُهُ[٧] ؟

---

(١) تنفق أى تروج .

(٢) النقير هو النكتة الصغيرة فى ظهر النواة . ويضرب بها المثل فى تفاهة الشأن .

(٣) المقيت البغيض المكروه . السفاة هى حسكة « شوكة » سنابل القمح وهى مضرب المثل فى الخفة مع التفاهة . وثبير اسم جبل ببلاد العرب .

(٤) الراح الخمر . شحطت النوى أى بعد الفراق . الطماح التطلع والطموح .

(٥) الألحاظ المريضة أى العيون الفاترة المتكسرة .

(٦) أى نحن نجرحه فى خديه بنظرات عيوننا إليه ، وهو يجرح قلوبنا بحبه .

(٧) اللوح هو الظمأ الشديد . والمعنى هل يروى عطشى الذى أعانيه نحو الحبيب ؟

هل أنت مُنْصفُ عاشقٍ متظلمٍ طُولُ النحيب شكاتُه وصياحُهُ ؟
قسماً لقد خيّمتُ منكَ بمنزل لى حَزْنُه ، ولمن سواى بطاحُهُ[1]
ما بال ثغرِكَ مَشْرباً ، لىَ سُكْرُهُ ولمن سِواى ـ فدتك نفسى ـ راحُهُ ؟

دموع الفراق

ما أشبه دموع الفراق عند التوديع بقطرات من الندى ، يقطرن من عيون كالنرجس على خدود كالورد . . .

لو كنت يومَ الفراق حاضَرنا وهُنَّ يُطفئن غُلةَ الوجْدِ
لم ترَ إلا دموعَ باكيةٍ تقطر من مُقلة على خدٍّ[2]
كأن تلك الدموع قَطْرُ نَدًى يَقْطر من نَرْجسٍ على وردِ ..

ملامة العشاق

إن لوم العاشقين يغريهم بزيادة الحب والإمعان فيه ، كما تغرى الريح النار بشدة الإحراق . وليس للمحب من دواء غير زورة من الحبيب !

لا تكثرن ملامةَ العشّاق فكفاهمُ بالوجد والأشواقِ
إن البلاءَ يُطَاق غيرَ مُضاعَفٍ فإذا تضاعف كان غير مُطاق
لا تطفئنَّ جوًى بلومٍ ، إنه كالريح تُغرى النارَ بالإحراقِ
ما للمحب إذا تفاقم داؤه غيرُ الحبيب يزوره من راقى

---

(١) لقد نزلت منك أيها الحبيب منزلا لى وعورته وصعابه، ولغيرى سهوله و بطاحه .
(٢) المقلة هى العين .

عذاب الحسن

حين يصيب الحسن مواقع اللحاظ فإنه يصيب القلوب بالعذاب . ولماذا كتب الله على المحبين الشقاء والعذاب ؟ إن الحبيبة حين تذنب بتعذيب الحبيب ، فالدعاء لها منه خالصاً بأن يجنبها الله هى العذاب وقصاص العقاب . . .

نَصَبَتْ حبائلَ حسنها فاصطدْنني ثم انتحت قلبى بنَبل عَذابها[١]

هل فى الشريعة نَصْبُ صَيْدٍ حاصلٍ للنبل ترشقه يدٌ بصُبابها[٢] ؟

صدٌّ وهجران وطولُ تعتُّبٍ وأشدُّ منه ضنُّها بعتابها[٣] . .

ما بالها سيفاً علىَّ مُسلَّطاً ولقد أتيْتُ محبتى من بابها ؟

يا ربِّ أن وَجَب العِقاب فوقِّها[٤] بى من عِقاب ذُنوبها وحسابها !

القرب والبعد

ألم يقل عمر بن أبى ربيعة فى رائيته المشهورة :

فلا قرب نعم إن دنت لك نافع ولا نأيها يُسْلى ولا أنت تصبرُ

وهنا يقول ابن الرومى فى هذا المعنى :

أراها فأزدادُ اشتياقاً وصَبوةً وإن نزحت فالموتُ دون نزوحها[٥]

---

(١) الحبائل جمع حبالة وهى ما يصاد به . والنبل ما يرمى به والجمع نبال .

(٢) متى وقع الصيد فهل فى الشريعة أن يظل يرمى بالنبال مع أنه حصل فعلا فى اليد ؟ والصباب البقية من الشىء .

(٣) التعتب الإلحاح فى طلب العتاب والتغضب .

(٤) وقها أى صنها واحفظها ، فلا تعاقبها بما أسلفت إلى من الذنوب ؛

(٥) النزوح البعد ، والصبوة الشوق والهوى الشديد .

فليس شفاء النفس مما أجنه لعفراءَ إلا لزَّ رُوحى بروحها[1]

و « عفراء » هى فتاة ابن الرومى ، أو كناية عنها ، كما كانت « نُعم » لابن أَبى ربيعة .

و — شعر الحنين إلى الأوطان

علة الحنين

حب الوطن فطرة فى النفس ، حتى ليجرى مجرى الدم فى المفاصل . ولكن لماذا يحب الناس أوطانهم ؟ إن ابن الرومى هنا يعلل لنا ذلك أصدق تعليل :

ولى وطن آليت أن لا أبيعَه وأن لا أرى غَيْرى له الدهرَ مالكا[2]

عَمَرتُ به شرْخ الشباب[3] منعَّماً بصحبة قوم أصبحوا فى ظلالكا . .

وَحَبَّبَ أوطانَ الرجال إليهمُ مآربُ قضَّاها الشبابُ هنالكا

إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتهمُ عهودَ الصِّبا فيها فحنُّوا لذلكا

فقد ألِفتْه النفسُ حتى كأَنه لها جسد ، إن بان غُودِرَ هالكا[4]

---

(١) لز الروح بالروح أى ألصقها بها .

(٢) ليس وطن ابن الرومى هنا إلا داره التى اغتصبها منه رجل من التجار يعرف بابن أبى كامل وأجبره أن يبيعها . فتوجه الشاعر إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر يشكو إليه . انظر « زهر الآداب » ج ٢ ص ٦٨٢ .

(٣) شرخ الشباب مستهله وأوله .

(٤) بان أى افترق و بعد . غودر أى ترك أو صار .

ز ـ البكاء على الشباب

عهد الشبيبة

وقف ابن الرومى فى مستهل مدحه لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر يستقبل المشيب ، ويحن إلى نضارات الشباب وعهوده التى سقاها الله طيب العهاد :

كفى بالشَّيب مِن ناهٍ مُطاعٍ ... على كُرهٍ ومِن داعٍ مُجابِ

حَطَطتُ إلى النُّهى رَحلى وكلَّت ... مطيةُ باطلى بَعد الهبابِ (١)

وقلتُ مسلِّما للشَّيب : أهلا ... بهادى المخطئين إلى الصواب !

ألستَ مبشِّرى فى كلِّ يوم ... بوَشْكِ ترحّلى إثْرَ الشباب ؟

لقد بشَّرتنى بلحاق ماضٍ ... أحبَّ إلىَّ من بَرْدِ الشراب (٢)

فلستُ مسمِّيا بُشراك نَعْياً ... وإن أوعدت نفْسى بالذهاب! (٣)

لك البشرى ! وما بُشراك عندى ... سوى ترقيع وَهْيك بالخضاب! (٤)

وأنتَ وإن فتكتَ بحِبِّ نفسى ... وصاحِب لذتى دون الصحاب

فقد أعتبتنى وأمَتَّ حقدى ... بحثِّك خلفه عَجِلاً رِكابى (٥)

إذا ألحقْتَني بشقيق عيشى ... فقد وفَّيتنى فيـه ثوابى

---

(١) النهى العقل . أى رجعت إلى العقل عند المشيب . وتعبت مطية با طلى وطوى بعد أن كانت مسرعة نشيطة .

(٢) أيها الشيب : لقد بشرتنى بأننى سألحق ما مضى من شبابى ومن ما ضى الذى كان أندى على القلب من الشراب البارد .

(٣) إن حلولك أيها الشيب وإنذارك لى لا أسميه نعياً ، وإن كان يؤذننى بقرب أجلى من الموت .

(٤) الوهى : تخرق الثوب وتشققه. وسيلجأ الشاعر إلى الخضاب « الصبغة » ليرقع وهى الشباب.

(٥) إذا كنت أيها المشيب قد فتكت بالشباب الذى هو إلف نفسى وحبيبها فإنك قد أرضيتنى حين أعجلت خطاى بالذهاب بعد ذهابه — أى بفقدى.

وحسبي من ثوابى فيه أنى | وإياه نئوب إلى مآب
لعمرك ما الحياةُ لكل حىّ | إذا فَقَدَ الشبابَ سوى عَذاب
فقل لبنات دهرى فلتُصبْنى | إذا ولّى بأسهُمها الصُّياب(١)
سقى عهد الشبيبة كلُّ غيثٍ | أغرَّ مجلْجلٍ دانى الرّباب(٢)
ليالىَ لم أقل : سَقْياً لعهد | ولم أرغب إلى سُقْيا سحَاب !
يذكِّرنى الشبابَ صدًى طويلٌ | إلى بَرَد الثنايا والرُّضاب(٣)
يذكرنى الشبابَ هوانُ عَتْبى | وصدُّ الغانيات لدى عتابى(٤)
يذكرنى الشبابَ سهامُ حَتْفٍ | يُصبْن مَقاتلى دُون الإهاب(٥)
رَمَت قلبي بهنَّ فأقصدته | طَلوع النَّبل من خَللَ النقاب(٦)
فراحت وهْى فى بالٍ رخىٍّ | ورُحتُ بلوعة مثلَ الشهاب
وكلٌّ مبارز بالشَّيب قِرْناً | فمسْبىٌّ — لعمرك — غيرُ سابى(٧)

---

(١) بنات الدهر خطوبه وأحداثه . والأسهم الصياب أى الصحيحة المصيبة المقاتل . ويقصد الموت .

(٢) الغيث المجلجل هو الذى له صوت لكثرته وشدته . والرباب السحاب الأبيض . ويدعو الشاعر هنا لعهد الشباب بالخصب والسقيا والنضارة التى لن تعود .

(٣) الصدى العطش الشديد . وبرد الثنايا أى الأسنان الشبيهات بالبرد الناصع بياضاً . والرضاب أعذب الريق .

(٤) إن مما يذكرنى بعهود الشباب هو هوانى على النساء اليوم وصدهن عن عتابى . ويؤيد هذا قول الشاعر :

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله | فليس له فى ودهن نصيب

(٥) سهام حتف أى سهام قواتل يصبن من جسمى مقاتل ولا يصبن الجلد فحسب .

(٦) أقصدته أى أصابت منه مقتلا . امرأة طلوع النبل أى كثيرة النبال التى تطلع من عينيها . فنظراتها كالنبال تقتل وتعمى . ومن خلل النقاب أى من خلال البرقع الذى على وجهها .

(٧) إن من يبارز قرنه ونظيره فى الحرب بالمشيب فهو مأسور لا محالة وليس بآسر .

ولو شهد الشبابَ إذن لراحت — وإنَّ بها ـ وعيشك ـ ضِعفُ مابي

فيا غوثاً هناك بقيد ثأرى — إذا ما الثأرُ فات يدَ الطِّلاب (١)

يذكرنى الشبابَ جنانُ عدن — على جَنَبات أنهار عِذاب

تفيءُ ظلَّها نفحاتُ ريحٍ — تهزُّ متون أغصانٍ رطاب

إذا ماسَتْ ذوائبها تداعت — بواكى الطير فيها بانتحاب

يذكرنى الشبابَ ومِيضُ بَرْقٍ — وسجعُ حمامة ، وحنينُ ناب (٢)

فيا أسفاَ ويا جزعاَ عليه — ويا حَزنَاً إلى يوم الحساب !

أأُفجَعُ بالشباب ولا أُعزَّى ؟ — لقد غَفَل المعزِّى عن مصابى !

تَفرَّقْنا على كُرْهٍ جميعاً — ولم يكُ عن قِلىً طولِ اصطحاب (٣)

وكانت أيكتى لِيَدِ اجتناء — فعادت بعدَه ليدِ احتطاب (٤)

أيا بُرْدَ الشباب لكنتَ عندى — من الحسنات والقِسمَ الرِّغاب

بَلِيتَ على الزمان وكل بُرْدٍ — فَبَين بِلىً ، وبين يَد استلاب

وعزَّ علىّ أن تَبلى وأَبقى — ولكنَّ الحوادث لا تحابى

---

(١) يتحسر الشاعر على أنه فى المشيب لا يستطيع أن يدرك ثأره من الحسان اللائى قتلنه ولم يستطع منهن إدراك الثأر .

(٢) الناب المسنة من الإبل . والمعنى أن مما يذكرنى بالشباب هو ما تقضى لى فيه من لمع البرق وسجع الحمام وحنين الإبل .

(٣) القلى : البغض . تفرقت أنا والشباب على كره منى لفراقه . ولم يكن تفرقنا لكراهة صحبته الطويلة . فإن صحبته – مهما طالت – لا تمل .

(٤) كانت أيكتى فى عهد الشباب للجنى وقطف الثمار ، وهى الآن ذابلة ليس فيها إلا أعواد متقصفة للاحتطاب .

لبستُك بُرهةً لُبسَ ابتذال على علمى بفضلك فى الثياب(١)
ولو مُلِّكت صَوْنَك فاعلمنه لصنتُك فى الحريز من العياب(٢)

بياض المشيب

أين بياض شعر الرأس فى المشيب من بياض الشباب والعارضين ؟ إن بياض المشيب ذميم يحتال على إخفائه بالسواد والخضاب ، وهنا يبكى الشاعر المفجوع فى شبابه على فقدان الشباب ورزيته فيه :

خليلىَّ ما بعد الشباب رزيّةٌ يُجمُّ لها ماء الشُّئون ويُعْتَدُ(٣)
شبابُ الفتى مجلودُه وعزاؤُه فكيف وأنّى بَعْدَه يتجلدُ(٤)
وفقدُ الشبابِ الموتُ يوجدطعمهُ صُراحاًوطعمُ الموت بالموت يفقَدُ(٥)
سُلِبت سَواد العارضين وقبلَه بياضَهما المحمودَ إذْ أناأمردُ(٦)
وبُدِّلت من ذاك البياض وحسنِه بياضاً ذمياً لا يزال يُسَوَّدَ
لشتان ما بين البياضين : مُعجبٌ أنيقٌ،ومَشْنوءٌإلى العينأنكَدُ!(٧)

---

(١) لبستك أيها الشباب برهة . لبساً لا صون فيه ولا حفظ على الرغم مما أعلمه من فضلك بين الثياب جميعاً .

(٢) العياب جمع عيبة وهى محافظ الثياب « الحقيبة أو الشنطة » .

(٣) يجم لها ماء الشئون أى يغزر لها ماء العيون . ويعتد أى يهيأ ويكون حاضراً .

(٤) إن الشباب هو عدة المرء على الجلد والعزاء ، فكيف يتجلد بعد ذهابه ؟

(٥) إذا كان طَعم الموت يفقد بالموت ، فإن فقد الشباب هو الموت الصراح الذى لم يفقد طعمه . . .

(٦) العارضان صفحتا الخد . وسوادهما هو سواد شعرهما . وبياضهما هو بياض بشرتهما . والأمرد القصير الشعر .

(٧) إن بياض الجلد يعجب ، ولكن بياض الشعر بغيض مكروه إلى العين .

وكنتُ جِلاءً للعيون من القذَى فقد جَعَلتْ تقذَى بشيبى وترْمَد

هى الأعين النُّجلُ التى كنت تشتكى مواقعها فى القلب والرأسُ أسود !

فمالك تأسَى الآن لما رأيتها وقد جعلت مرمى سواك تعمَّدُ[١]

تَشكَّى إذا ما أقصدتْكَ سهامُها وتأسَى إذا نُكِّبْنَ عنك وتكمد[٢]

كذلك تلك النَّبل مَن وقَعتْ به ومن صُرفت عنه من القوم مُقْصَدُ

وعزَّاك عن ليل الشباب مَعاشرٌ فقالوا : نهار الشيب أهدى وأرشد

وكان نهارُ المرء أهْدَى لسعيه ولكنَّ ظل الليل أندى وأبْرَدَا ![٣]

أقولُ وقد شابت شَواتى وقُوِّست قناتى، وأضحت كُدنتى تتخدَّد[٤]

لِما تُؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعةَ يُولدُ

وإلاّ فما يُبكيه منها وإنها لأفسَحُ ممَّا كان فيه وأرغد ؟

ح ــ الحكمة والمثل

إنَّ من لام جاهلاً لطبيبٌ يتعاطى عِلاجَ دَاء عياء[٥]

* * *

(١) مالك تحزن الآن بعد الشيب على العيون النجل التى كانت تصيب مواقع قلبك فى شبابك ثم انصرفت عنك اليوم إلى غيرك ؟

(٢) لقد كنت تشكو العيون حين كن يرمينك بسهامهن ، واليوم تشكو لأنهن لا ينظرن إليك ولا يأبهن بك !

(٣) حين يعزيك قوم بأن بياض الشيب هو كهداية النهار ، فقل لهم : هذا حق ! ولكن سواد ليل المشيب أندى على الأكباد !

(٤) الشواة قحف الرأس وجلدته، والقناة عمود الظهر ، والكدنة امتلاء لحم الجسم، وتتخدد أى تصبح ذات خدود وشقوق .

(٥) الداء العياء هو الداء الذى يستعصى علاجه .

إنَّ بَحْثَ الطبيبِ عن داءِ ذِى الدا ء لَأُسُّ الشِّفاء قبل الشِّفاء

* * *

تَوَقِّى الداء خيرٌ مِنْ تَصَدٍّ لأيْسَرِهِ وإِن قَرُبَ الطبيبُ

* * *

إِذا غَمَرَ المالُ البخيلَ وجدتَه يزيدُ به يُبْسًا وإن ظُنَّ يرْطُبُ
وليس عجيباً ذاكَ منه فإنه إذا غَمَرَ الماءُ الحجارة تصْلبُ

* * *

نعمة الصحة والقناعة

إذا ما كساكَ اللهُ سِرْبال صحة(١) ولم تَخْلُ من قُوت يَحِلُّ ويَعْذُبُ
فلا تغبِطنَّ المترفين فإنهم على حَسْبِ ما يكسوهمُ الدهر يسْلُب

ليس عن الصبر مذهب

أَرى الصبر محموداً وفيه مذاهبٌ فكيف إذا ما لم يَكنْ عنهُ مذهبُ
هو المهربُ المُنْجِى لمن أحْدقت به مكارهُ دهر ليس عنهن مَهربُ(٢)

---

(١) سربال الصحة هو ثوبها الذى تبدو فيه .

(٢) وهل يهرب الإنسان من مكايد الدهر ؟ ألم يقل الشاعر القديم :

وأنت كالدهر مبثوثاً حبائله والدهر لا ملجأ منه ولا هرب

بين الإقدام والإحجام

أَذاقتْنىَ الأسفار ما كرَّه الغِنى ‏ إلىَّ وأغرانى برفْض المطالبِ

فأصبحتُ فى الإثراء أزهدَ زاهد ‏ وإن كنت فى الإثراء أرغبَ راغبِ

حَريصاً جباناً أشتهى ثم أنتهى ‏ بلحظى جَناب الرزق لحَظ المُراقبِ [(١)]

ومن راح ذا حرص وجُبن فإنه ‏ فقير أتاه الفقر من كل جانبِ

تنازَعنى رَغْبٌ ورَهْبٌ كلاهما ‏ قوىٌّ ، وأعيانى اطِّلاعُ المغايبِ

فقدَّمتُ رِجلا رغبةً فى رغيبة ‏ وأخّرت رِجلاً رهبةً للمعاطبِ [(٢)]

أخاف على نفسى وأرجو مَفازَها ‏ وأستارُ غيبِ الله دُون العواقبِ

ألا مَن يُرينى غايتى قَبل مَذهبى ‏ ومِن أين والغايات بَعدَ المذاهبِ؟ [(٣)]

ط ـ الشكوى

حرمان

لقد حرم ابن الرومى القرى فى الدنيا التى نزل ضيفاً بها ، وهو فى ميعة الشباب . فقال من قصيدة يشكو بها الزمان إلى إسماعيل بن بلبل :

وَيْحَ القوافى مالَها سَفْسفت ‏ حظى كأنى كنتُ سَفْسَفْتُها! [(٤)]

أنْحَتْ على حظى بمبْرَاتِها ‏ شُكراً لأنى كنت أرْهَفتها

(١) إن آفة الإنسان فى الحياة هو الخوف والجبن وتوقع زوال ما هو فيه . فهو لا يكاد يشتهى الرزق حتى يخاف زواله ويلاحظه بعين الحريص على بقائه، المتوجس من نفاده .

(٢) المعاطب جمع معطب وهى مهالك المرء .

(٣) أليس هناك من يرينا غاياتنا قبل أن نمضى فى طريق الحصول عليها ؟ ولكن أنى لنا ذلك والغايات لا تكون إلا بعد أن يمضى الإنسان فى طلبها ؟

(٤) سفسفت الريح الشىء طيرته .

وكثّفتُ دون الغنى سدَّها[1] حتى كأنى كنت كثّفتُها

حُرِمت فى سنى وفى مَيْعتى قِراى من دُنيا تضيَّفتُها[2]

لَهْفى على الدنيا وهل لهفةٌ تنصفُ منها إن تلهفتُها ؟

كم آهةٍ لى قد تأوهتُها فيها . ومن أُفٍّ تأفَّفْتُها

قُبحاً لها قبحاً ! على أنها أقبحُ شىء حين كشَّفْتُها

مقاتل الزمان

لجأ ابن الرومى إلى سالم بن عبد الله بن عمر ليعينه على الزمان ، ويعطيه من الدروع التى يقاتل بها حروب الدهر ما يمكنه من صراع الحياة :

أغِثنى يا أبا حَسَنٍ أغثنى فأنت المستغاثُ لدى الكروبِ[3]

أجِرنى من نقائصَ قد أضرَّت بعَبْدك يا ربيعَ ذوى الجُدوبِ[4]

أُعيذك أن تخفف من دُروعى فإنى من زمانى فى حُروبِ

وما تلك الدروع سوى هِباتٍ تجودُ علىَّ من يدك الوَهُوبِ

أصونُ بهـا المَقاتل من زمانٍ على الأحرار عدَّاءٍ وثوبِ

تروِّعنى النقائصُ كل شهر مع التَّعب المبرِّح والدُّءوبِ

كأنى حين أذكرهُنَّ أُرْمَى بسهمٍ فى فؤادِى ذِى نُشوب

---

(١) جعلت بينى و بين الغنى سداً كثيفاً وحاجزاً منيعاً

(٢) حرمت فى نضارة عمري القرى والطعام من دنيا نزلت ضيفاً عليها

(٣) يذكرنا هذا المطلع فى لهفة الاستغاثة بقول جرير الشاعر للخليفة الأموى عبد الملك ابن مروان :

أغثنى يا فداك أبى وأمى بسيب منك إنك ذو ارتياح

(٤) الجدوب : الإمحال وهو ضد الخصب .

ى ـ العتاب

أين الصفاء ؟

كان بين شاعرنا و بين أبي القاسم التوزى الشطرنجى مودة وصداقة كشفت حاجة ابن الرومى عن تقصير فيهما . فنظم قصيدة طويلة يعاتبه فيها ، وهى من مشهورات ابن الرومى . وإلى القراء الكرام أبياتاً تدل على روح الشاعر فى عتابه :

يا أخى أَيْنَ رَيْعُ[1] ذاكَ اللقاءِ ؟ ... أين ما كان بيننا من صَفاء ؟
أين مِصداق شاهد كان يحكى ... أَنك المخلصُ الصحيحُ الإخاء ؟
كَشَفَتْ منك حاجتى هنواتٍ ... غُطِّيتْ بُرهةً بحسن اللقاء[2]
تَرَكَتْنى — ولم أكن سَيِّءَ الظنِّ — أُسىءُ الظنونَ بالأصدقاءِ
يا أخى هَبْكَ لم تَهب لىَ من سَعْـ ... ـيك حظًّا كسائر البخلاءِ
أفلا كان منك ردٌّ جميلٌ ... فيه للنفس راحةٌ من عناء ؟
أَجزاءُ الصديق إيطاؤه العَشْـ ... ـوَةَ حتى يظل كالعشواء[3] ؟
تاركا سَعْيه اتكالاً على سَعْـ ... ـيك دُون الصحاب والشفعاء
كالذى غره السراب بما خَيَّـ ... ـل حتى هَراق ما فى السِّقاء[4]

* * *

يا أبا القاسم الذى كنت أرجو ... هُ لدهرى قَطَعْتَ مَتْنَ الرجاء ؟
لا أجازيك من غرورك إيا ... ى غُروراً ، وُقيتَ سُوءَ الجزاء

(١) ريع الإخاء أى ثمرته وغلته وما كان ينتظر من نتيجته .

(٢) الهنوات جمع هنة . وهى : الشىء ، والمقصود بها الهفوات .

(٣) إيطاؤه العشوة أى إركابه على غير هدى . والعشواء هى الناقة التى لا تبصر فتظل تخبط فى مشيتها على غير هدى .

(٤) هراق أى أراق وصب . والسقاء الوعاء من الجلد يحفظ فيه الماء .

بل أرى صِدْقَكَ الحديث[١] وماذا ك لبُخل عليك بالإغضاءِ
أنت عينى وليس من حقِّ عينى غضُّ أجفانها على الأقذاءِ
ما بأمثال ما أتيتَ من الأمْـ ـر يَحُلُّ الفتى ذُرا العلياءِ
لا ولا يكسب المحامِد فى النا س ولا يَشترى جميلَ الثناءِ
ليس من حلَّ بالمحل الذى أنـ ـت به من سماحة ووفاءِ
بَذَلَ الوعد للأخلَّاء سَمْحا وأَبَى بعد ذاك بَذْلَ العطاءِ
فغدا كالخِلاف يُورِق للعيـ ـن ويأبى الأثمارَ كلَّ الأباء[٢]
ليسَ يرْضى الصديقُ منك ببِشْر تحت مخبوئه دفينُ جفاء[٣]

* * *

يا أبا القاسم الذى ليس يَخفى عنه مكنونُ خُطة عَوْجاءِ
أترى كلَّ ماذكرتُ جليًّا وسواه من غامض الأنحاء
ثم يَخْفى عليك أنى صديقٌ ربما عزَّ مثلُه بالغلاء ؟
لا لعَمْرُ الإله لكنْ تعاشَيْـ ـتَ بصيرًا فى ليلة قمراءِ
بل تعاميتَ — غيرَ أعمى — عن الحق نهاراً فى ضَحْوة غراءِ
ظالمًا لى مع الزمان الذى ابتـ ـزَّ حقوقَ الكرام للؤماءِ
ثَقُلَتْ حاجتى عليك فأضحتْ وَهْى عبءٌ من فادح الأعباءِ

---

(١) أرى صدقك الحديث أى أرى أن أصدقك الحديث ولا أخفى منه شيئاً عليك .

(٢) الخلاف شجر من نوع الصفصاف يورق ورقاً كثيراً ، ولكنه لا يثمر ثمراً . ويضرب مثلا للمنظر المعجب الذى لا يحمل فائدة ولا ثمرة .

(٣) رواية الشيخ شريف سليم : تحت مخبوره أى مختبره . والمخبوء هو المختبىء المختفى .

ولها محمل خفيف . . ولـكن كان حظى لديك دونَ اللفاءِ[١]

كنتُ مستوحشاً فأظهرتَ بخساً زادنى وحشةً من الخلطاءِ

وعزيزٌ علىَّ عضِّيك[٢] باللو م ولـكن أصبتَ صدرى بداءِ !

أنت أدويتَ صَدرَ خِلِّك فاعذِرْ هُ على النفْث إنه كالدواءِ[٣] !

٢ – ابن الرومى الناثر

تهنئة بالعيد

كتب ابن الرومى إلى عبيد الله بن سليمان يهنئ بعيد :

« أخَّرتنى العلة عن الوزير — أعزه الله — فحضرت بالدعاء فى كتابى لينوب عنى ، ويعمرُ ما أخلته العوائقُ منى . وأنا أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيد أعظم الأعياد السالفة بركة على الوزير ، ودون الأعياد المستقبلة فيما يُحِبُّ ويُحَب له . ويقبل ما توسل به إلى مرضاته ، ويضاعف الإحسان إليه على الإحسان منه ، ويمتعه بصحبة النعمة ، ولباس العافية ؛ ولا يُريه فى مسرةٍ نقصاً ، ولا يقطع عنه مَزيداً ، ويجعلنى من كل سُوء فِداه » .

اعتراف بالود

وكتب رسالة قصيرة رواها صاحب « زهر الآداب » :

« إنى لوليُّك الذى لم تَزل تنقادُ لك مودته ، من غير طمع ولا جزع ، وإن كنتَ لذى رغبة مَطْمعاً ، ولذى رهبة مَهْرباً » .

(١) اللفاء هو الشيء الخسيس الحقير .

(٢) يعز على أن أعضك باللوم والعتاب الشديد .

(٣) أدويت صدر خلك أى أصبته بالداء .
والنفث هو هذا العتاب الذى يفرج به عن نفسه كالدواء .

اعتذار من ذنب

وكتب إلى القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد رسالة يتنصل فيها من ذنب :

« ترفعْ عن ظُلمى إن كنت بريئاً ، وتفضَّل بالعفو إن كنتُ مسيئاً . فوالله إنى لأطلبُ عفو ذنب لم أَجْنه ، وألتمسُ الإقالة مما لا أعرفه ، لتزداد تطوُّلا ، وأزدادَ تذللا . وأنا أُعيذ حالى عندك بكرَمك من واشٍ يكيدها ، وأَحرسها بوفائك من باغٍ يحاول إفسادها . وأسأل الله تعالى أن يجعل حظى منك بقدر ودى لك ، ومحلى من رجائك بحيث أستحق منك ، والسلام » .

دعاء لمريض

وكتب رسالة إلى صديق له فى علة يدعو له فيها بالشفاء :

« أذِن الله فى شفائك ، وتلقَّى داءك بدوائك ، ومسح بيد العافية عليك ، ووجَّهَ وَفد السلامة إليك ، وجعل علَّتك ما حيةً لذنوبك ، مضاعفة لثوابك » .

عتاب على نسيان هدية

وعاد صديق له من بلدة « سيراف » فأهدى إلى جماعة من أصحابه ونسى ابن الرومى ، فكتب إليه يعاتبه :

« أطال الله بقاءك وأدام عزك وسعادتَك ، وجعلنى فداءك ! لولا أننى فى حَيرة من أمرى ، وشُغل من فكرى لما افترقنا . وشوقى — علم الله — فغالب ، وظمأى فشديد . وإلى الله الرغبةُ فى أن يجعل القدرة على اللقاء حسب المحبة ، إنه قادر جواد .

ومكانُنا من جميل رأيك — أيدك الله — يبعثُنا على تقاضى حقوقنا قِبَلَك . وكريم سجاياك وأخلاقك يشجعنا على إمضاء العزم فى ذلك . وما تطولتَ به من الإيناس يؤنسنا بك ، ويبْسُطنا إليك . وآثارُ يديك تدلنا عليك ، وتشهد لنا بسماحتك . واللهُ يطيل بقاءك ، ويديم لنا فيك وبك السعادة .

وبلغنى — أدام الله عزك — أن سحابة من سحائب تفضلك أمطرتْ منذ أيام مطراً ، عم إخوانك بهدايا مشتملة على حُسْن وطيب . فأنكرتُ على عدلك وفضلك خروجى منها ، مع دخولى فى جملة من يعتدُّك ويعتقدك ، وينحوك ويعتمدك .

وسَبَق إلى قلبى من ألم سوء الظن برأيك أضعافُ ما سبق إليه من الألم بفوت الحظ من لطفك ، فرأيت مداواةَ قلبى من ظنه وقلبك من سهوه ، واستبقاءَ الود بيننا بالعتاب الذى يقول فيه القائل : ويبقى الود ما بقى العتاب ، وفى ما عاتبتُك كفاية، عند من له أذنك الواعية ، وعينك الراعية » .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع دار المعارف
فى شهر مارس (آذار) سـنة ١٩٥٥

مجموعة نوابغ الفكر العربى

مجموعة جديدة جامعة تقدم نوابغ الفكر العربى فى جميع العصور ، كما يصورهم ويترجمهم نوابغ الفكر العربى فى العصر الحاضر من كل قطر وبلد ؛ فهى تعنى بالشعراء والكتاب كما تعنى بالفلاسفة والحكماء، وتتناول أعلام اللغة كما تتناول أعلام التاريخ . وقد رأت دار المعارف أن تعهد فى كل بحث من هذه البحوث إلى المختصين به وذوى الخبرة والدراية فيه؛ فيجولوا فيه ويتبعوه بباب واف للمختار من روائع المترجم له مفسر المعانى مبين الأغراض .

● ظهر منها :

١ – ابن رشد . ٢ – الجاحظ . ٣ – الشيخ نجيب الحداد . ٤ – محمود سامى البارودى. ٥ – ابن زيدون . ٦ – الشيخ ناصيف اليازجى. ٧ – إخوان الصفا . ٨ – بشار بن برد . ٩ – بديع الزمان الهمذانى . ١٠– أبو الفرج الأصبهانى . ١١ – ابن الرومى . ١٢ – الفرزدق . ١٣ – السهروردى. ١٤ – الشيخ إبراهيم اليازجى . ١٥ – المتنبى . ١٦ – البحترى. ١٧– الخنساء. ١٨ – ابن قتيبة. ١٩ – جرير . ٢٠ – ابن المقفع. ٢١– أبو حيان التوحيدى. ٢٢ – ابن سينا . ٢٣ – عبد الرحمن الكواكبى. ٢٤ – رفاعة رافع الطهطاوى. ٢٥ – خليل مطران . ٢٦ – ولى الدين يكن . ٢٧ – صفى الدين الحلى . ٢٨ – البهاء زهير . ٢٩ – جمال الدين الأفغانى . ٣٠ – تقى الدين بن حجة الحموى . ٣١ – الفارابى . ٣٢– ابن رشيق القيروانى . ٣٣ – القاضى الجرجانى . ٤ – حسان بن ثابت . ٣٥ – قاسم أمين . ٣٦ – ضياء الدين بن الأثير .

٢٠ قرشاً ج. ع. م.	٢٠٠ فلس فى العراق والأردن	٢,٨٠ درهماً فى المغرب
١٦٠ ق . م	٢٠٠ فلس فى الكويت	٢,٨ ريالا سعوديا
٢٠٠ ق . س	٣٠٠ مليم فى تونس	٤ شلنات } فى البلاد
٢٠٠ مليم فى ليبيا والسودان	٣,٤ دنانير فى الجزائر	٠,٥٨ دولاراً } الأخرى